الباب الثاني

■ تنظيم صنعة الطب

obeikandl.com

obeikandl.com

مدخـــل

كما سبق أن بينا في مقدمة هذا الكتاب ان غرضنا من وضعه هو البحث في كيفية قيام العرب بتنظيم طبهم في إطار الحضارة العربية الإسلامية. وهذا ينطلق من نقطتين أساسيتين:

أولاهما: إيماننا بأنه لا تطور بدون تنظيم. والناظر فيما كتبناه في الباب الأول عن تطور الطب في العصور المختلفة لدى أمم وحضارات مختلفة؛ يجد أن الطب تطور تطورا كبيرا خلال عصور الحضارة العربية الإسلامية، بل نستطيع أن نقول إنه لم يكن فقط تطورا عاديا بل كان طفرة وقفزة عظيمة إلى الأمام وأحد أهم نقاط التحول في تاريخ الطب. ومن هنا كان لا بد أن نجد خلف هذا التطور الرائع تنظيماً أروع. والقارئ المتمعن لتراثنا الطبي يجد هذا التنظيم في بعض الأحيان واضحا وفي أحيان أخرى يقرأه بين السطور. لقد تناولوا بالتنظيم كل النواحي المتعلقة بالطب من إدارية ومالية ورقابية ومهنية وعلمية وتعليمية.

وثانيتها: كما قلنا سابقا في الباب الأول إنّ الطب والبحث عن العلاج ظهر على الأرض بظهور الإنسان، وارتبط بحياة الإنسان وبعاداته وتقاليده ومعتقداته برباط وثيق. ومن هنا ظهرت الحاجة إلى تنظيمه في وقت مبكر. ورأينا كيف أعطانا أرسطو مثلا عن مسئولية الأطباء في مصر القديمة " لا يسمح للأطباء المصريين بأن يصرحوا للمريض بأن يتحرك من فراشه ثلاثة أيام متتالية، فإذا أباح له أحدهم بذلك فعليه أن يتحمل مسئولية المخاطرة ".

وفي قانون حمورابي في حضارة ما بين النهرين نصوص كثيرة تتناول تنظيم الطب أوردناها في الباب الأول ولا ضرر بأن نذكر القارئ العزيز بأحد هذه النصوص.

"إذا قام جراح بعمل عملية لرجل نبيل من أجل علاج جرح كبير باستعمال مشرط برونزي، وتسبب في موته. أو فتح خرّاجاً في عين رجل باستعمال مشرط برونزي وأدى إلى فقد عين الرجل، يجب عليهم قطع أصابعه".

ومنذ وقت مبكر قام أطباء الحضارة العربية الإسلامية بوضع النظم العلمية لصنعة الطب من قواعد ونظم للعلاج وقوانين استخدام الأغذية والأدوية المفردة والأدوية المركبة، وكتابة دساتير العلاج المختلفة (بروتوكولات علاجية) وتنظيم التعليم قبل الممارسة وبعدها، ووضعوا صفات محددة لطالب الطب ومعلم الطب وحددوا واجبات الطبيب تجاه المهنة نفسها وتجاه المريض وتجاه المجتمع.

إلى جانب كل هذا طالبوا منذ وقت مبكر بتدخل الدولة للإشراف على مهنة الطب لإحساسهم العميق بشرف هذه المهنة لارتباطها بحياة الناس، فلا يوجد طبيب من كبارهم إلا وكتب في شرف الصنعة، لدرجة أنهم نسبوا مقولة للإمام الشافعي "العلم علمان: علم الأبدان وعلم الأديان"[1] إلى الرسول ﷺ. ومن هنا جاءت مطالبتهم الدولة بتحمل مسؤولية الإشراف على صنعة الطب لحمايتها من الاندثار وتخليصها من جهلة الأطباء والصيادلة ومن المشعوذين والمدعين:

قال هبة الله بن يوسف: "إن أهم أسباب دثور صناعة الطب هو إهمال الملوك العناية بها"(٢).

وقال الرهاوي في أدب الطبيب: "ولما كان الملوك والرؤساء بما خصهم الله من أنواع السعادات، يؤثرون السعادات. ويحبون الفضائل وأهل الفضل أكثر من غيرهم ممن دونهم، وجب لذلك أن تكون عنايتهم بتقويم هذه الصناعة (الطب) أكثر من غيرهم، لتتضح حقيقتها، ويظهر نفعها للخاص والعام، فيبين شرفها، فيكون الملوك العانون بتقويمها، وبكشف حقيقة ما فيها، أعظم نفعاً للناس منها"(٣).

ثم يحدد هذه المسؤولية قائلاً: "إن النظر في أمر الطبيب خاصة وإلزام الأطباء بعد محنتهم، واختبار أمورهم واجب على الملوك أولا، ثم على الرؤساء ومن إليهم النظر في مصالح الناس والعلماء وأهل العقول"(٤).

وهذا "ابن رضوان" رئيس أطباء مصر يطالب السلطة بالتدخل للقضاء على جهلة الأطباء، والدجالين:

"ولعل السلطان ينظر في أمرهم فلا يمكّن أحدا منهم من التكسب بهذه الصناعة إلا أن يكون حاذقاً ويعرف عليهم أفضلهم ليقتدي به الباقون فيكون ذلك سبباً لزوال هذه المحنة"(٥).

ولقد ساعد على اهتمام الدولة بالطب أن كثيراً من كبار أطباء ذلك العصر كانوا من المقربين إلى الخلفاء والأمراء ورجال الدولة، بل إن بعضهم وصل إلى

obeikandi.com

مرتبة الوزارة "كابن سينا" ولقد مر معنا خلال قراءتنا للباب الأول من هذا الكتاب، أن الإسلام أولى الطب والتطبب والبحث عن الدواء عنايته البالغة وظهرت التنظيمات الأولى في عهد مبكر. فهناك أحاديث نبوية تفيد بأن الشخص المؤهل فقط هو الذي يجب أن يتعالج لديه المريض، وهو الطبيب، فعن جابر رضي الله عنه "أنه لما مرض أبي بن كعب رضي الله عنه بعث إليه رسول الله ﷺ طبيباً فقطع منه عرقاً ثم كواه"(٦).

وروى أبو داود من حديث مجاهد، عن سعد قال: " مرضت مرضا فأتاني رسول الله ﷺ يعودني، فوضع يده بين ثديي حتى وجدت بردها على فؤادي وقال لي: إنك رجل مفؤود فأت الحارث بن كلدة من ثقيف، فإنه رجل يتطبب"(٧).

وفي تحديد مسؤولية الطبيب الجاهل قال سيد البشرية ﷺ: "من تطبب ولم يعلم منه الطب قبل ذلك، فهو ضامن"(٨).

وفي التشريع لحماية الأصحاء ومنع انتشار الأوبئة. قال رسول الله ﷺ: "الطاعون رجز أرسل على طائفة من بني إسرائيل، وعلى من كان قبلكم، فإذا سمعتم به بأرض، فلا تدخلوا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها فرارا منه"(٩).

وهذا الاهتمام المبكر أدى إلى اهتمام مسؤولي الدولة الإسلامية الحديثة وأطبائها بتنظيم طبهم.

الفصل الأول

تنظيم صنعة الطب

الطـب:

علم يتعرف منه أحوال بدن الإنسان من جهة ما يصح ويزول عن الصحة، ليحفظ الصحة حاصلة ويستردها زائلة [١٠].

هذا تعريف "ابن سينا" للطب وهناك تعريفات كثيرة تختلف في الصياغة ولكنها تتفق في المعنى من حيث حفظ الصحة الموجودة ورد الصحة المفقودة بحسب الإمكان.

علم الطب:

فرع من فروع العلوم الطبيعية، وينقسم إلى جزأين:

١- علم أصول الطب (الجزء النظري).

٢- علم كيفية مباشرة الطب (الجزء العملي).

يقول ابن سينا: " فإذا قيل إن من الطب ما هو نظري، ومنه ما هو عملي، فلا يجب أن يظن أن مرادهم فيه هو أن أحد قسمي الطب هو تعليم العلم، والقسم الآخر هو المباشرة للعمل كما يذهب إليه وهم كثير من الباحثين عن هذا

obeikandl.com

الموضع، بل يحق عليك أن تعلم أن المراد من ذلك شيء آخر وهو أنه ليس واحد من قسمي الطب إلا علما، لكن أحدهما علم أصول الطب والآخر علم كيفية مباشرته"[١١].

صنعة الطب:

الطب كما هو علم فهو أيضا صنعة(حرفة) من الصنائع، وككل الصنائع لابد من توفر شروط وصفات محددة:

١- لا بد لها من العلم والتعلم.

٢- تطورها وكمالها يرتبط بالتطور الحضاري للمجتمع.

٣- تأصلها في المجتمع يرتبط بتأصل الحضارة وترسخها في هذا المجتمع.

٤- تخضع لقانون العرض والطلب.

٥- تخضع لمراقبة الجودة والنوعية.

٦- تخضع لإشراف الدولة عن طريق المحتسب[١٢].

ولقائل أن يقول: إنكم تبالغون وتنسبون لأجدادكم إنجازات لم يحققوها، بل هي من إنجازات الغرب والعصر الحديث خاصة فيما يتعلق بالنقطة الرابعة والخامسة!

obeikandi.com

ونرد على هؤلاء: بأنه بيننا وبينهم تراث الأجداد المكتوب من مئات السنين. وإن جميع ما نكتبه في هذا الكتاب إنما هو منسوب إليهم، مأخوذ من تراثهم وإن اختلفت الألفاظ والتعابير باختلاف العصور.

والآن لنفسر ما ورد من كون الطب علماً وصنعةً: صنف ابن خلدون الطب كفرع من العلوم الطبيعية:

" ومن فروع الطبيعيات صناعة الطب وهي صناعة تنظر في بدن الإنسان من حيث يمرض ويصح، فيحاول صاحبها حفظ الصحة وبرء المرض بالأدوية والأغذية...."(١٣).

وعرف الطبيعيات بقوله:" وهو علم يبحث عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة والسكون، فينظر في الأجسام السماوية والعنصرية وما يتولد عنها من إنسان وحيوان ونبات ومعدن، وما يتكون في الأرض من العيون والزلازل، وفي الجو من السحاب والبخار والرعد والبرق والصواعق وغير ذلك ..." (١٤).

وكذلك صنف ابن خلدون الطب من الصنائع عندما تحدث عنها في الإشارة إلى أمهات الصنائع: "اعلم إن الصنائع من النوع الإنساني كثيرة لكثرة الأعمال المتداولة في العمران. فهي بحيث تشذ عن الحصر ولا يأخذها العد. إلا أنّ منها ما هو ضروري في العمران أو شريف بالموضوع، فنخصها بالذكر ونترك ما سواها: فأما الضروري فكالفلاحة والبناء

والخياطة والنجارة والحياكة، وأما الشريفة بالموضوع فكالتوليد والكتابة والوراقة والغناء والطب "[١٥].

وفي الفصل السادس عشر إلى الفصل العشرين من مقدمته المشهورة يتحدث ابن خلدون عن شروط وسمات الصنائع[١٦].

الفصل السادس عشر: في أن الصنائع لا بدلها من العلم (الفقرة ١).

الفصل السابع عشر: في أن الصنائع إنما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته (الفقرة ٢).

الفصل الثامن عشر : في أن رسوخ الصنائع في الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها (الفقرة ٣).

الفصل التاسع عشر : في أن الصنائع تستجاد وتكثر إذا كثر طلبها. (الفقرة ٤و٥).

الفصل العشرون: في الأمصار إذا قاربت الخراب انتقصت منها الصنائع. (الفقرة ٤).

ويقول ابن خلدون في الفصل السابع عشر: "وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع للتأنق فيها حينئذ" ويواصل الحديث عن الجودة في نفس الفصل قائلا: "كان من جملتها التأنق في الصنائع واستجادتها"، وعن مراقبة الجودة النوعية يقول ابن خلدون في الفصل التاسع عشر: "وأيضاً فهنا سر آخر وهو إنّ الصنائع وإجادتها إنما تطلبها الدولة، فهي التي تنفق سوقها وتوجه الطلبات".

وأما عن إشراف الدولة على صنعة الطب عن طريق إشراف المحتسب على الأطباء والصيادلة وأماكن عملهم فسنتحدث عن هذا في الفصول المقبلة. ولكننا نورد هنا فقرة عن المحتسب ومراقبة الجودة النوعية يقول الماوردي في الأحكام السلطانية والولايات الدينية:

"ومما يؤخذ ولاة الحسبة بمراعاته من أهل الصنائع في الأسواق ثلاثة أصناف: منهم من يراعى عمله في الوفور والتقصير، ومنهم من يراعى في حالة الأمانة والخيانة، ومنهم من يراعى عمله في الجودة والرداءة".

هل كنا مبالغين عزيزي القارئ عندما قلنا ما قلناه ونسبنا ما نسبناه في بداية هذا الفصل؟

الطب علم:

موضوعه: بدن الإنسان.

غايته: جلب الصحة أو حفظها.

حده: (هو تعريفه إجمالاً) علم بأحوال بدن الإنسان يحفظ به حاصل الصحة ويسترد زائلها[١٧].

ينظر في[١٨]: الأركان (العناصر) والمزاجات والأخلاط والأعضاء البسيطة والمركبة والأرواح وقواها الطبيعية والحيوانية والنفسانية والأفعال وحالات البدن في الصحة والمرض والتوسط وأسبابها من المآكل والمشارب والأهوية والمياه

والبلدان والمساكن والاستفراغ والاحتقان والصناعات والعادات والحركات البدنية والنفسانية والسكونات والأسنان (الأعمار) والأجناس، والواردات على البدن من الأمور الغريبة، والتدبير بالمطاعم والمشارب واختيار الهواء واختيار الحركات والسكونات والعلاج والأدوية وأعمال اليد لحفظ الصحة وعلاج المرض.

هذا هو مجمل مقتضب لنظريتهم في الطب ومواضيعه.وليس غرضنا من إيرادها إلا لنعرّف القارئ بدقّة تنظيمهم وشمولية موضوعات الطب لديهم.

قواعد الطب:

قواعد طب الأبدان ثلاث[١٩]:

١- حفظ الصحة.

٢- الحمية من المؤذي.

٣- استفراغ المواد الفاسدة.

وللبدن ثلاث حالات[٢٠]:

١- حالة طبيعية بها يكون البدن صحيحاً.

٢-حالة خارجه عن الطبيعة بها يكون البدن مريضاً.

٣- حالة متوسطة بين الاثنتين.

obeikandl.com

قواعـد العلاج:

إن أمر العلاج يتم من أشياء ثلاثة[٢١]:

١- التدبير والتغذية.

٢- استعمال الأدوية.

٣- استعمال أعمال اليد.

تعريف الطبيب على وجه العموم[٢٢]:

عرفوه بأنه الذي يفرق ما يضر الإنسان جمعه، أو يجمع فيه ما يضر تفرقه، أو ينقص منه ما يضره زيادته، أو يزيد فيه ما يضره نقصه، فيجلب الصحة المفقودة، أو يحفظها بالشكل والشبه ويدفع العلة الموجودة بالضد والنقيض، ويخرجها أو يدفعها بما يمنع من الحصول بالحمية.

تعريف الطبيب على وجه التخصيص[٢٣]:

من يطب بوصفه وقوله وهو الطبائعي، وبمروده وهو الكحال، وبمبضعه ومراهمه وهو الجرائحي، وبموساه وهو الخاتن، وبريشته وهو الفاصد، وبمحاجمه ومشرطه وهو الحجام، وبخلعه ووصله ورباطه وهو المجبر، وبمكواته وناره وهو الكواء، وبقربته وهو الحاقن، وسواء كان طبه لحيوان بهيم أو إنسان، فاسم الطبيب يطلق لغة على هؤلاء كلهم.

هوامش الفصل الأول من الباب الثاني

١- انظر داود الأنطاكي: تذكرة أولي الألباب ص ١٦ وأيضاً محمد أحمد دمج: مرايا الأمراء ص ٣٦١.

٢- المقالة الصلاحية الورقة ٢٣٢ أ-ب نقلاً عن الرهاوي: أدب الطبيب، تحقيق مريزن سعيد مريزن، هامش ص ٢٦٤.

٣- الرهاوي: أدب الطبيب ص ٢١٥.

٤- المصدر السابق نفسه ص ٢٦٤.

٥- حنيفة الخطيب: الطب عند العرب ص ١٦٣-١٦٤.

٦- أخرجه مسلم.

٧- أخرجه أبو داود.

٨- أخرجه أبو داود.

٩- أخرجه البخاري.

١٠- ابن سينا: القانون في الطب ١٣/١.

١١- المصدر السابق نفسه ١٣/١.

١٢- سنتحدث عن المحتسب في الصفحات المقبلة.

١٣- مقدمة ابن خلدون ص ٤٧٨.

١٤- المكان نفسه.

١٥- المصدر السابق نفسه ٤٧٥.

١٦- تمت المناقشة على ما جاء في الصفحات ٣٧١-٣٧٤ من مقدمة ابن خلدون.

١٧- داود الأنطاكي: تذكرة أولي الألباب ص ١٩.

١٨- ابن سينا: القانون في الطب ١٥/١.

١٩- ابن قيم الجوزية: الطب النبوي ص ٦.

٢٠- المصدر السابق نفسه ص ٩، وأيضاً ابن سينا: القانون في الطب ١٥/١.

٢١- ابن سينا: القانون في الطب ٢٥٣/١.

٢٢- ابن قيم الجوزية: الطب النبوي ص ٩.

٢٣- المصدر السابق نفسه ص ١٢٤.

obeikandl.com

الفصل الثاني

وظائف الإشراف الرقابي الإداري والمهني على صنعة الطب

الحسبة والمحتسب

الحسبة:

بكسر الحاء لغة الأجر واسم من الاحتساب بمعنى طلب الأجر والاختبار والإنكار والظن والاعتداد والاكتفاء[١].

والحسبة وظيفة دينية تقوم على قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال تعالى:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾[٣].

ويبين "ابن تيمية" حكمها قائلاً: "وهذا واجب على كل مسلم قادر، وهو فرض على الكفاية، ويصير فرض عين على القادر الذي لم يقم به غيره، والقدرة هو السلطان والولاية"[٤].

obeikandl.com

وكان أئمة الصدر الأول يباشرونها بأنفسهم لعموم صلاحها وجزيل ثوابها[٥]، ومن العهد العباسي الأول عندما وصلت الدولة إلى أوسع مدى لها في أوج حضارتها وتشعبت المسؤوليات وتعقدت الإدارات؛ كان لا بد من جهة رقابية تأخذ صلاحياتها من سلطان الخليفة المسؤول شرعا في الحفاظ على حقوق الله وحقوق العباد. فتم تعيين موظف سمي "والي الحسبة" أو "المحتسب". يقول القلقشندي في صبح الأعشى:

"وهو مشتق من قولك حسبك بمعنى اكفف سمى بذلك لأنه يكفي الناس مؤونة من يبخسهم حقوقهم "[٦]، أنيطت به مسؤوليات هذه الوظيفة يعاونه أعوان وغلمان"[٧].

وتطور منصب المحتسب ليصبح أحد أهم الولايات الشرعية والمناصب الدينية على امتداد عصور الحضارة الإسلامية. وفي الدولة الفاطمية - في بعض مراحلها في مصر- أضافوا صلاحيات هذا المنصب إلى الشرطة[٨].

ومن ضمن مسؤوليات المحتسب العديدة مسؤولية تمثيل إشراف الدولة الإسلامية على مهنة الطب وممتهنيها. وقد اهتمّ كثير من كتاب وعلماء تلك العصور بهذه الولاية الشرعية وتوسعوا في وصفها.

ومن أوائل من كتب عن الحسبة والمحتسب وبين مسؤوليات هذه الوظيفة الشرعية:

الشيخ أبوالحسن على بن محمد الماوردي من علماء القرن الخامس الهجري في كتابه "الأحكام السلطانية والولايات الدينية"، وكذلك القاضي أبو

يعلى محمد ابن الحسين الفراء الحنبلي في كتابه " الأحكام السلطانية " وهو أيضا من علماء القرن الخامس الهجري. ثم ظهر كتاب شيخ الإسلام "ابن تيمية" "الحسبة في الإسلام". كما أوردها "ابن خلدون" في مقدمته ضمن الوظائف الدينية، ومن القرن الثامن الهجري كتاب "نصاب الاحتساب" لعمر بن محمد السنامي.

وَثَمَّةَ أهمٌّ كتابين عن الحسبة ورد فيهما بإسهاب عن المسؤوليات الرقابية والإدارية وصلاحيات المحتسب على مهنة الطب، أحدهما من القرن السادس الهجري وهو كتاب "نهاية الرتبة في طلب الحسبة " لعبد الرحمن بن نصر الشيزري، والآخر "معالم القربة في أحكام الحسبة " لابن الأخوة القرشي من القرن السابع الهجري.

- **ولنعرف الآن الحسبة اصطلاحاً:**

عرفها الماوردي "وأبو يعلى الفراء الحنبلي" بالتالي:

"هي أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله" (٩).

وعرفها ابن خلدون: "فهي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين، يعين لذلك من يراه أهلاً له، فيتعين فرضه عليه، ويتخذ الأعوان على ذلك، ويبحث عن المنكرات، ويغرر ويؤدب على قدرها، ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة ..."(١٠).

وعرفها أحمد مصطفى المراغي: "مشارفة السوق والنظر في مكاييله وموازينه، ومنع الغش والتدليس فيما يباع ويشترى من مأكول ومصنوع، ورفع

الضـرر عن الطريق بدفع الحـرج عن السـابلة من الغـادين والرائحين وتنظيف الشـوارع والحـارات والأزقـة إلى نحـو ذلك من الوظائف التي تقـوم بهـا المجـالس البلدية ومفتشو الصحة ومفتشو الطب البيطري، ومصلحة المكاييل والموازين، وقلم المرور، ورجال الشرطة الموكول إليهم المحافظة على الآداب العامة إلى غير ذلك "[١١].

وأحكام الحسبة وسط بين أحكام القضاء وأحكام المظالم.

- **اختصاصات المحتسب:**

اختصاصات المحتسب في العصور الإسلامية الزاهرة كانت متعددة وشاملة، فقد وضع له "السنامي" في كتابه "نصاب الاحتساب" أربعة وأربعين اختصاصاً رئيساً عدا ما يتفرع منها من اختصاصات أخرى[١٢].

وقد قسمها الماوردي وأبو يعلى الحنبلي إلى:

اختصاصات تتعلق بالأمر بالمعروف واختصاصات تتعلق بالنهي عن المنكر.

وكل واحدة من هذه قسماها إلى ثلاثة أقسام:

١- ما تعلق بحدود الله تعالى.

٢- ما تعلق بحقوق الآدميين.

٣- ما كان مشتركا بينهما.

ولنا أن نتصور هذا الكم الهائل من المسؤوليات التي كانت مناطة بالمحتسب وأعوانه. وإذا ترجمنا هذا إلى تنظيمات العصر الحديث ومؤسساته. نجد أن وظائفه مناطة في الوقت الحاضر إلى هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أقسام أمانات المدن والبلديات بأقسامها المختلفة من صحة البيئة، والنظافة، وإنشاء الطرق، وتعديات المباني ومراقبة الباعة وأصحاب الحرف، ومراقبة المكاييل والموازين ومعايرتها.

وأقسام المرور والحقوق المدنية ومكافحة التسول بالشرطة.

ووزارة العمل والشؤون الاجتماعية في مراقبة العلاقة بين العمال وأرباب العمل، ومراقبة كفلاء الأيتام واللقطاء.

ووزارة التجارة في مراقبة الغش التجاري والأسعار والجودة النوعية، وتوفر المواد الغذائية وحماية المستهلك.

وجمعية الرفق بالحيوان، فإذا كان في أرباب المواشي من يستعملها فيما لا تطيق الدوام عليه أنكره المحتسب عليه ومنعه منه[١٣] وكذلك منع إخصاء الحيوانات.

والشؤون الصحية في مراقبة مهنة الطب (سنتحدث عنها بالتفصيل).

ولكي لا نتهم بالمبالغة والمغالاة سنورد بعض الأمثلة من هذه المسؤوليات من كتاب الأحكام السلطانية لأبي يعلى الحنبلي[١٤]:

"فإذا اجتمع أهل محلة أو بلد على تعطيل الجماعات في مساجدهم، وترك الآذان في أوقات صلاتهم، كان المحتسب مأموراً بأمرهم بالآذان والجماعة في الصلوات، على طريق الوجوب عليهم والإثم بتركه، بناء على أن الجماعة واجبة".

"وأما الأمر بالمعروف فيما كان مشتركا بين حقوق الله تعالى وحقوق الآدميين، كأخذ الأولياء بنكاح الأيامى من أكفائهن إذا طلبن، وإلزام النساء أحكام العدة إذا فارقن أزواجهن".

"وإذا تعرض للمسألة ذو جلد وقوة على العمل زجره وأمره أن يتعرض للاحتراف بعمل، فإن أقام على المسألة غرره حتى يقلع عنها".

"وإذا جاهر رجل بإظهار الخمر. فإن كان مسلما أراقها وأدبه، وإن كان ذمياً أُدّب على إظهارها وتراق عليه لأنها غير مضمونة".

"غش المبيعات وتدليس الأثمان، فينكره ويمنع منه، ويؤدب عليه بحسب الحال فيه".

"ويجوز له إذا استراب بموازين السوقة ومكاييلهم أن يختبرها ويعايرها".

"إذا تعدى مستأجر على أجير في نقصان أجر أو استزادة عمل كفه عن تعديه وكان الإنكار عليه معتبرا بشواهد حالة. ولو قصر الأجير في حق المستأجر فنقصه من العمل، أو استزاده في الأجرة منعه منه وأنكره عليه إذا تخاصموا إليه".

" ومما يأخذ ولاة الحسبة بمراعاته من أهل الصنائع في الأسواق ثلاثة أصناف:

منهم من يراعى عمله في الوفاء والتقصير.ومنهم من يراعى حاله في الأمانة والخيانة ومنهم من يراعى عمله في الجودة والرداءة ".

أليس هذا نظام مراقبة للجودة النوعية؟

" وأما ما ينكره من الحقوق المشتركة بين حقوق الله تعالى وحقوق الآدميين، فكالمنع من الإشراف على منازل الناس...وللمحتسب أن يمنع أرباب السفن من حمل ما لا تسعه، ويخاف منه غرقها، وكذلك يمنعهم من المسير عند اشتداد الريح...وإذا كان في أهل الأسواق من يختص بمعاملة النساء راعى المحتسب سيرته وأمانته، فإذا تحققها منه أقره على معاملتهن وإن ظهرت منه الريبة وبان عليه الفجور، منعه من معاملتهن وأدبه على التعرض لهن".

"وينظر والي الحسبة في مقاعد الأسواق، فيقر فيها ما لا ضرر على المارة فيه ويمنع ما استضر به المارة... وإذا بنى قوم في طريق سابل مُنِعوا منه. وإن اتسع له الطريق. ويأخذهم بهدم ما بنوه،...وإذا وضع الناس الأمتعة وآلات الأبنية في مسالك الشوارع والأسواق ارتفاعا لينقلوه حالا بعد حال، مكنوا منه، وإن لم يستضر به المارة، ومنعوا منه إن استضروا به...ويمنعهم من إخراج الأجنحة والسباطات، ومجاري المياه وآبار الحشوش... ".

" ويمنع من خصاء الآدميين والبهائم ويؤدب عليه... ويمنع من التكسب بالكهانة واللهو ويؤدب عليه الآخذ والمعطي ".

"ومن أخذ لقيطاً وقصر في كفالته أمره أن يقوم بحقوق التقاطه من التزام الكفالة أو تسليمه إلى من يلتزمها ويقوم بها"

"وكذلك أرباب البهائم بأخذهم بعلوفتها إذا قصروا وألا يستعملوها فيما لا تطيق"

كما عدد "ابن الأخوة" المهن التي يشرف عليها المحتسب:

فله الحسبة على العلافين والخبازين والفرانين والشوايين والجزارين وعلى اللبانين والطباخين والهراسين والعطارين والحريريين والغطائين والصيارف والنحاسين والحدادين والبياطرة وقلايين السمك وقلايين الزلابية والأطباء والجراحين والفصادين والحجامين والكحالين ومؤدبي الصبيان والمنجمين والوعاظ وكتاب الرسائل [١٥].

وكما ذكر سابقا فإن الحسبة ووظيفة المحتسب استمرت على مر عصور الحضارة الإسلامية، والنص التالي أورده القلقشندي في صبح الأعشى كمثال لأوامر التعيين (أو الاستمرار) في الوظائف الدينية في عصر الدولة المملوكية. والنص عبارة عن نسخة توقيع بحسبة بعلبك وفيها تبيان لواجبات واختصاصات المحتسب في ذلك العصر:

"رسم بالأمر الشريف - لا زالت شهب أوامره عالية السنا والسناء وفيه لذوي الاستحقاق بمزيد الاعتناء والاغتناء، جلية البر بمن شهد بحسن حسبته حتى لسان الميزان وفم الكيل وشفة الإناء - أن يستمر فلان..... لما ذكر من

أوصافه التي ضاعفت فيه الرغبة، وحالفت به سمو الرتبة، وشهدت به حسبته تلو الشهود: وحسبك من اجتمعت على فضله شهادة الفرض وشهادة الحسبة، ولما صح من كفاءته وتجريبه، ووضح في هذه الوظيفة من تدريبه التي تدرى به، ولما تعين من استمرار شهابه في المنزلة التي تكتسي من أضوائه وتكتسب، وهذه الرتبة التي تعلو بمعرفته: وكفاه أنه يرزق من حيث يحتسب ومن حيث لا يحتسب! وأنه فيها ذو الرأي الزائد، والنفع الوارد، والشهاب الذي نور هداه في وجه المريد وأثر حسبته في وجه المارد، وأنه وليها ولاية لا تزال تذكر وتشكر، وعرف بوفائها وكان أوفى من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وأنه قام حق القيام حتى قال البلد: رعى الله زمانك، واجتهد حتى قال الاعتبار للميزان: لا تذكر الزيغ ولا تحرك به لسانك.

فليستمر في حسبته المباركة استمرارا يستحلى ذكره، ويستجلى في الاسم شهابه وفي السمة بدره، وليحتسب في نفع المسلمين حسبة يحتسب بها عند المملكة ثناءه وعند الملائكة اجره، سالكا على نهج العزم الجميل جاعلا أول نظره من أقوات الرعية في الدقيق والجليل، مستبينا لما التبس من غش المطاعم والمشارب فلم يستبن، حاكما - ولا سيما في قاعات بعلبك - برأي يفرق بين الماء واللبن، حاثا على بيع المآكل بخبرة من ملأ بصره، حريصا على أن لا ينشد لسان الداخل فيه " ومن لم يمت بالسيف مات بغيره" دافعا ضرر المجتري البائع عن المشتري المسكين: ذكيا فيما يُذكى فيذبح بسكين ويذبح متناوله بغير سكين، قاضيا بالحق في كل ما يشترى ويباع، متكلما في أنواع الملابس وغيرها بالباع والذراع، وازنا بالعدل في كل موزون ومكيول، رادعا لكل عمال مداهن في كل

مدهون ومعمول، حاملاً على الحال المستقيم كل حي لديه وكل من هو على آلة حدباء محمول؛ ومن زاد في الإضرار فليمنع زائده، ومن زاد في الاشتطاط وتجبير الشراء فليقطع بالنكال زائده، ومن دنس في الأشربة فلا يلبث أن يغلظ التأديب وأن يريقه، ومن سقى الضعفاء منها كما يقال: سقية فليسقه من السوط ما يكاد ينثر جسمه على الحقيقة، ومن عانى صناعة ليس له فيها يد فليلزمه بما بسط في إفساده اليدين، ومن حكم في صناعة الطب بما لم يسغ في المسائل فليصرفه منها بخفي حنين، ومن تمرد في معاملته فليرده بالقهر إلى صالح مرده ومن عدا وعتا فليعامله بما يخرجه من الترح لا من الفرح من جلده، مقداما في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا جزعاً، مستعينا بالديوان فيما أهم: فإن الله يزع بالسلطان ما لا يزع، مجتهدا فيما يزيد تقدم سعيه المشكور، وضعفه المبرور، منيرا الآفاق منصبه وكيف لا وهو الشهاب بن أبي النور؟ وتقوى الله تعالى هي السبيل الأقوم فليكن لها منهاجا، وليواظب على طريقة الحق: فكم شر عنها حاد وكم خير منها جاء "[١٦].

شروط يجب توفرها في والي الحسبة (المحتسب):

أن يكون خبيرا عدلا، ذا رأي وصرامة وخشونة في الدين، وعلم بالمنكرات الظاهرة.

هل يشترط أن يكون عالما مجتهدا، أي من أهل الاجتهاد في أحكام الدين؟

أجاب أبو يعلى الحنبلي: يحتمل أن يكون من أهله (أي أهل الاجتهاد) ويحتمل ألا يكون ذلك شرطا إذا كان عارفا بالمنكرات المتفق عليها[١٧].

لقد أفضنا في الحديث عن هذه الوظيفة بوجه عام قبل الحديث عن علاقتها بمهنة الطب لعدة أغراض:

- لتعريف القارئ بهذه الوظيفة الفريدة من نوعها والتي أصبحت جزءاً من النظام الإداري والرقابي في الدولة والمجتمع الإسلامي، وميزته عن بقية الدول والمجتمعات المعاصرة.

- لتبيين أن الأنظمةَ والوظائف النابعة من المجتمع ذاته تعبيرا عن حاجة أو ضرورة نتيجة لبلوغه مرحلة معينة من التطور؛ تبقى وتتطوّر معه وتدوم ما دام المجتمع يتطور، وتندثر إذا تراجع المجتمع حضاريا وهبط إلى مرحلة أقل من المرحلة التي استوجبت ظهور هذه الأنظمة والوظائف. ولكنها تبقى في كل الأحوال تعبيرا عن المجتمع وتطوره وتفي بالحاجة ما دام هناك ضرورة لها، بعكس الأنظمة والوظائف المستوردة من خارج المجتمع، أي من مجتمع آخر يختلف في ذاته ويختلف في مراحل تطوره فتعبر هذه الأنظمة والوظائف عن هذا المجتمع المصدّر لها ويكون تطبيقها ناجحا فيه، ولا تعبر عن المجتمع المورّد لها، فيتخبط التطبيق.

- لتعريف القارئ ببعض المراسلات الإدارية في تلك العصور.

المحتسب والمهن الطبيـة

في سنة ثلاثمئة وتسع عشرة هجرية وصل إلى مسامع الخليفة المقتدر أن مواطناً من العامة قد توفي نتيجة لخطأ ما من بعض المتطببين. فقام الخليفة بتعيين أحد أبرز أطباء ذلك العصر "سنان بن ثابت بن قرة" رئيساً للأطباء. وطلب من محتسبه "إبراهيم بن محمد بن بطحا" بتوقيف جميع أطباء بغداد وكان عددهم ثمانمئة رجل ونيفا وستين رجلا من التصرف. على أن يقوم رئيس الأطباء بامتحانهم جميعا، ومن يجتاز هذا الامتحان، يسمح له المحتسب بممارسة المهنة في نطاق ما أطلق له رئيس الأطباء ما يصلح أن يتصرف فيه[١٨].

ومنذ ذلك الوقت أخضعت المهن الطبية لرقابة المحتسب وقد تطرقت معظم كتب الحسبة إلى هذه العلاقة ضمن حديثها عن اختصاصات المحتسب. ومن المؤلفات التي تناولت العلاقة بين المحتسب والمهن الطبية بالتفصيل كتاب عبد الرحمن الشيزري " نهاية الرتبة في طلب الحسبة" وكتاب ابن الأخوة القرشي "معالم القربة في أحكام الحسبة" ومن مضمون ما جاء فيهما نستطيع أن نحدد:

اختصاصات المحتسب في مراقبة المهن الطبية:

١- فهو الذي يصدر تصريح العمل للطبيب بعد اختباره من قبل رئيس الأطباء.

٢- وهو الذي يشرف على امتحانات الأطباء الطبائعيين والكحالين والجرائحيين أمام رؤسائهم.

٣- وهو الذي يوقف الأطباء عن العمل عند حدوث خطأ طبي.

٤- وأمامه يقسم الطبيب القسم الطبي "عهد أبقراط".

٥- وهو الذي يتابع عملهم في حوانيتهم (عيادات الأطباء) ويتأكد من أنهم يتبعون ما أقسموا عليه: بعدم إعطاء دواءٍ مضر ولا يركبوا سُمّاً، ولا يصفوا التمائم لأحد من العامة، ولا يذكروا للنساء الدواء الذي يسقط الأجنة، ولا للرجال الدواء الذي يقطع النسل...

٦- ويتأكد من توفر الأدوات الطبية لدى الأطباء.

٧- ويتأكد من علم وخبرة الكحالين والمجبرين والجرائحيين والفصادين والحجامين وأنهم يمتلكون الأدوات اللازمة للقيام بعملهم على الوجه الصحيح.

٨- ويتأكد من أن الأطباء يستخدمون طرق العلاج الصحيحة وما استقر عليه الطب.

٩- ويحرص على أن تمارس مهنة الطب في أماكنها المخصصة لذلك وليس في الشوارع والأزقة.

١٠- يقوم بجولات التفتيش على حوانيت بيع الأدوية ويتأكد من توافر الدواء وأن تحضيره يتم بالطرق الصحيحة وبدون غش، وأن الدواء لا يباع إلا بموجب وصفات طبية من قبل الطبيب لمريض معين ودواء محدد.

١١- يقوم بالتفتيش على البيمارستانات: فيتفقد سير العمل ويراعى أحوال

obeikandl.com

المرضى ويتأكد من قيام الطبيب والصيدلي والغلمان وغيرهم بأعمالهم على الوجه المطلوب، كما يتفقد نظافة البيمارستان ومستوى الغذاء المقدم.

١٢- منع السحرة والكهان من ممارسة مهنة الطب، وزجر الناس عن تصديقهم.

١٣- منع القوابل من إسقاط الأجنة.

١٤- مراقبة الجودة النوعية في عمل الأطباء.

بعض النصوص التي تبين اختصاصات المحتسب في الرقابة على المهن الطبية:

ذكر أبو يعلى الحنبلي في الأحكام السلطانية:" فأما من يراعى عمله في الوفور والتقصير، فكالطبيب والمعلمين لأن الطب إقدام على النفوس، يفضي التقصير فيه إلى تلف أو سقم "[١٩].

وذكر السنامي في نصاب الاحتساب عند تحديد صلاحيات المحتسب:

" الثامن والعشرون" منع المطلسمة والسحار والكهان عن منكراتهم...السابع والثلاثون: منع القوابل عن إسقاط جنين الحوامل... الثامن والثلاثون: منع الجراحين عن الجب والخصاء في الناس... التاسع والثلاثون: منع الحجامين عن مس الأجنبيات إلا لضرورة لا بد منها. وعن حجامة الحبلى في أوان مضرتها بالحجامة"[٢٠].

obeikandl.com

وأورد القلقشندي في وصية محتسب: "وليقيم الضمان على العطارين والطرقية من بيع غرائب العقاقير إلا ممن لا يستراب فيه وهو معروف، وبخط متطبب ماهر لمريض معين في دواء موصوف"(٢١).

ويقول الشيزري: " وينبغي للمحتسب أن يأخذ عليهم عهد أبقراط الذي أخذه على سائر الأطباء، ويحلفهم ألا يعطوا أحداً دواءً مضراً، ولا يركبوا له سُمّاً، ولا يصفوا التمائم عند أحد من العامة، ولا يذكروا للنساء الدواء الذي يسقط الأجنة، ولا للرجال الدواء الذي يقطع النسل، وليغضوا أبصارهم عن المحارم عند دخولهم على المرضى، ولا يفشوا الأسرار ولا يهتكوا الأستار..... وللمحتسب أن يمتحن الأطباء... "(٢٢).

وقال أيضا: " وينبغي للطبيب ان يكون عنده جميع آلات الطب على الكمال"(٢٣) وهذا ينطبق أيضا على الجرائحيين والكحالين والفصادين والحجامين.

وعن الصيادلة قال الشيزري:" وينبغي للمحتسب أن يخوفهم ويعظهم وينذرهم العقوبة والتعزير، ويعتبر عليهم عقاقيرهم في كل أسبوع. فمن غشوشهم المشهورة أنّهم يغشون الأفيون المصري بشياف ماميتا،ويغشونه أيضا بعصارة ورق الخس البري، ويغشونه أيضا بالصمغ."(٢٤).

وفي الحسبة على الفصادين قال:"لا يتصدى للفصد إلا من اشتهرت معرفته بتشريح الأعضاء والعروق والعضل والشرايين، وأحاط بمعرفة تركيبها

وكيفيتها،...، وبالجملة ينبغي للمحتسب أن يأخذ عليهم العهد والميثاق ألا يفصدوا في عشرة أمزجة، وليحذروا فيها حذرا إلا بعد مشاورة الأطباء..... ينبغي أن يكون مع الفاصد مباضع كثيرة، من ذوات الشعيرة وغيرها؛ وأن يكون معه كبة من حرير أوخز أو..... "[٢٥].

وهكذا يستمر الشيزري في تبيان الحسبة على الأطباء والكحالين والجرائحيين والمجبرين والفصادين والحجامين والصيادلة والعطارين، وبيان الصفات العامة والخاصة لكل مهنة. وسنتحدث عن هذا بالتفصيل في الفصول القادمة. وقد يتبادر إلى الذهن من قراءة نصوص الشيزري السابقة: أن المحتسب كان يقوم بنفسه بامتحان الأطباء. ونحن لا نعتقد ذلك للأسباب التالية:

١- أجمعت المصادر والمراجع أن من كان يقوم بامتحان الأطباء هم رؤساء المهنة أي رئيس الأطباء للطبائعيين ورئيس الكحالين للكحالين ورئيس الجرائحيين للجرائحيين وهكذا. وقد مر معنا كيف أن الخليفة المقتدر عندما أوقف الأطباء في بغداد عن العمل طلب ذلك من المحتسب، وألا يجيز عودتهم للعمل إلا بعد امتحانهم من قبل رئيس الأطباء المعين. وبذلك يكون الإشراف على الامتحانات من مسؤوليات المحتسب، أما الامتحان المهني الفني فيكون من قبل رؤساء الأطباء. وسنتحدث عن هذا أثناء الحديث عن رئيس الأطباء وعن امتحانات الأطباء.

٢- مما مر معنا في الصفحات السابقة علمنا أن وظيفة المحتسب صنّفت ضمن الوظائف الدينية، ومن شروطها أن يكون حرا عدلا ذا رأي وصرامة

وخشونة في الدين وعلم بالمنكرات الظاهرة، وليس من شروطها أن يكون خبيرا فنيا في كل المهن ليقوم بنفسه باختبار المتخصصين. كما أن شمولية واجباته ومسؤولياته المتشعبة تجعل منه جهة رقابة وإشراف وليس جهة تقييم علمي وفني، إلا في حالات نادرة عندما يكون المحتسب نفسه طبيبا كما حدث عندما عين الطبيب أحمد بن الطيب السرخسي محتسبا. أورد ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء في طبقات الأطباء النص التالي: " وتولى أحمد بن الطيب السرخسي في أيام المعتضد الحسبة ببغداد"(٢٦).

وللمحتسب سجلات يسجل فيها أسماء أصحاب الحرف والمهن (ومن ضمنهم الأطباء) وأماكن حوانيتهم(٢٧).

أمير مجلس (أمير المجلس)

أحد أهم المناصب المحدثة في دولة المماليك. وهي الوظيفة الرابعة من وظائف أرباب السيوف التي بلغ عددها خمساً وعشرين وظيفة[٢٨]، وقد وصلت في مرحلة من مراحل الدولة إلى أنّها تلي وظيفة الأمير الكبير. وصاحب هذه الوظيفة يتولى تنظيم وترتيب وتدبير مجلس السلطان، وهو مسؤول أيضا عن حراسة السلطان والمحافظة على صحته، وهذا مما أعطاه الحق في الحديث عن الأطباء والكحالين والجرائحيين وغيرهم من أصحاب مهنة الطب.

كتب القلقشندي في صبح الأعشى:

"هو لقب على من يتولى أمر مجلس السلطان والأمير في الترتيب وغيره"[٢٩].

ويواصل التعريف في مكان آخر:" إمرة مجلس وموضوعها (تولي أمور مجلس السلطان)[٣٠] وهو يتحدث عن الأطباء والكحالين ومن شاكلهم ولا يكون إلا واحدا "[٣١].

وعرفه "ابن تغري بردى" "في النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة":

" أمير مجلس كان موضوعها في الدولة الظاهرية (بيبرس) يتحدث عن الأطباء والكحالين والمجبرين وكانت وظيفة جليلة أكبر قدراً من أمير سلاح"[٣٢].

وظائف الإشراف المهني (الفني والإداري)

رئيس الأطباء

أعلى منصب مهني[٣٣] يمكن أن يصل إليه الطبيب في ذلك العصر، ويكون مسؤولاً مسؤوليةً كاملةً عن الأطباء الذين يشرف عليهم من الناحية الفنية والتعليمية والإدارية. يسمى رئيس الأطباء إذا كان مسلماً، وساعوراً إن لم يكن مسلماً:

"هو الذي يحكم على طائفة الأطباء ويأذن لهم في التطبيب ونحو ذلك"[٣٤].

"هو رئيس الأطباء المتحدث عنهم في الإذن في التطبب والعلاج والمنع من ذلك وما يجري هذا المجرى"[٣٥].

طبقات رؤساء الأطباء:

كان يوجد رؤساء أطباء على مستوى الدولة ومستوى الولاية، ومستوى المدينة، ومستوى عدة بيمارستانات ومستوى البيمارستان الواحد[٣٦].

وفي الدولة المملوكية منح رؤساء الأطباء ألقاباً حسب طبقاتهم، والمستعمل فيها درجتان:

درجة المجلس:

وفيه ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: مرتبة المجلس العالي.

المرتبة الثانية: مرتبة المجلس السامي.

المرتبة الثالثة: مرتبة المجلس السام بدون ياء.

الدرجة الثانية: درجة الصدر[٣٧].

شروط اختيار رئيس الأطباء:

ولم يكن هذا المنصب يسند إلا لمن شهد له بالعلم والدراية والهمة العالية وبعد اجتيازه امتحانات عديدة تؤكد أهليته للمنصب، وليصبح بذلك المرجعية الأولى في الأمور الفنية والعلمية في مجاله وفي المنطقة المسؤول عنها.

فعندما عين الرازي رئيساً لأطباء البيمارستان العضدي كان ضمن مئة طبيب مشهود لهم بالعلم رشحوا لهذه الوظيفة، فاختير منهم خمسون ثم اختصروا إلى عشرة ومن هؤلاء تم اختيار الرازي رئيسا لأطباء البيمارستان ومديرا له.

اختصاصات رئيس الأطباء:

أولا: مسؤوليات إدارية:

١- مسؤوليات تنظيمية تنفيذا لسياسة الدولة الصحية:

مثال ذلك: عندما شعرت الدولة بمسؤولياتها عن صحة مواطنيها خاصة

الذين في السجون وفي المناطق النائية حيث لا تتوفر لهم الرعاية الطبية الصحيحة بعكس أهل الحواضر، حيث تتوفر الرعاية الطبية بشكل أفضل لوفرة الأطباء والبيمارستانات؛ قام الوزير على بن عيسى الجراح رسميا بمخاطبة رئيس أطباء بغداد ورئيس بيمارستاناتها "سنان بن ثابت بن قرة" بإرسال فرق طبية للسجون وللمناطق النائية، حيث قام رئيس الأطباء بتنفيذ ذلك.

٢- مسؤوليات تخطيطية (في إنشاء البيمارستانات):

ونضرب لذلك مثالين: الأول: عندما اقتنع الخليفة المقتدر بإنشاء بيمارستان باسمه أوكل التخطيط والتنفيذ من حيث البناء وتعيين الأطباء ووضع الميزانية لرئيس أطبائه سنان بن ثابت [٣٩].

والمثال الثاني: أورده لنا " ابن أبي أصيبعة " في رائعته عيون الأنباء في طبقات الأطباء، حيث وصف كيف قام الرازي بعد تعيينه رئيسا لأطباء البيمارستان العضدي، بوضع قطع من اللحم في أماكن مختلفة من مدينة بغداد، وقرر إنشاء البيمارستان في الموقع الذي بقيت فيه أحد قطع اللحم أطول مدة قبل أن تفسد [٤٠].

٣- مسؤوليات إدارية مهنية في الإشراف على طائفة الأطباء:

لقد مر معنا أن الخليفة المقتدر عندما وصل إلى سمعه موت مواطن من العامة نتيجة خطأ طبي لبعض الأطباء، أمر محتسبه بوقف جميع أطباء بغداد عن العمل وعين" سنان بن ثابت بن قرة " رئيسا للأطباء وطلب منه امتحان جميع

هؤلاء الأطباء، وألا يسمح لأحدهم بالعمل كطبيب إلا إذا اجتاز هذا الامتحان. وقد عرّف القلقشندي رئيس الأطباء بأنه هو الذي يحكم على طائفة الأطباء ويأذن لهم في التطبب ونحو ذلك [٤١].

ومن هذه المسئوليات انبعثت عدة مهام:

أ - امتحان الأطباء والإذن لهم بالعمل قبل الحصول على تصريح العمل من المحتسب.

ب - مراقبة ومتابعة الأطباء مهنيا بالتنسيق مع المحتسب، وإعادة التقييم إذا دعت الحاجة أو طلب المحتسب ذلك.

ج - وقف الطبيب عن العمل بالتنسيق مع المحتسب إذا أخطأ هذا مهنيا أو أخلاقياً.

د - يمثل الجهة الاستشارية العليا للمواطنين في مجال مراقبة الأطباء:

فقد أورد "الشيزري" في "معالم الرتبة في طلب الحسبة" و"الرهاوي" في "أدب الطبيب " من أنه كان إجبارا على الطبيب تدوين نتائج كشفه، وتشخيصه وعلاجه في أوراق يوقع عليها. كما يوقع عليها أيضا شاهدان من أهل المريض. تحفظ لدى المريض ويحضرها معه عند كل زيارة، حيث يسجل فيها الطبيب ما يستجد في كل مرة. وإذا توفي المريض أخذ أهله هذه الأوراق (الملف الطبي)، إلى الحكيم المشهور أي رئيس أطباء المدينة، الذي يقوم بدراستها، وبعدها يخبر أهل المتوفى بأحد النتيجتين التاليتين:

- لا خطأ على الطبيب، وإنه قام بواجبه على الوجه الأكمل.

- أو يخبرهم بأن الطبيب قد أخطأ وأن لهم الدية. ويستطيعون اللجوء إلى القضاء [٤٢].

٤- مسؤوليات إدارة البيمارستان:

عند تعيين أحد الأطباء رئيساً لأطباء بيمارستان ما، فإنه يكون المسؤول الأول عنه من الناحية الفنية والمهنية والعلمية، ويتقاسم المسؤولية الإدارية مع ناظر البيمارستان [٤٣].

ثانياً: المسؤوليات التعليمية:

رئيس الأطباء في كونه المرجعية المهنية والعلمية الأولى في المنطقة المعين لها؛ يكون هو المسؤول الأول عن التعليم الطبي وامتحان الأطباء في منطقته. ومن هذه المسؤوليات انبثقت عدة مهام تناولت اختيار المنهج التعليمي لطلبة الطب وإلقاء المحاضرات وتنظيم التعليم والامتحانات وغيرها من الأمور التي سنتناولها بالتفصيل في الفصل المخصص للتعليم الطبي وامتحان الأطباء.

يقول القلقشندي في وصفه لأحد رؤساء الأطباء:

" تصفّحه تثقيف لعلماء الصناعة وتسليم، ودروسه ذخائر ينفق من جواهر حكمها كل حكيم"[٤٤].

ثالثاً: المسؤوليات المهنية مما يتعلق بعلاج المرضى:

رئيس الأطباء لكونه طبيباً معالجاً في الأصل؛ فإنه أُعتبر المرجعية الأخيرة في علاج المرضى في منطقته. وكانت العادة في بيمارستانات ذلك العصر عند حضور المريض إلى البيمارستان أن يكشف عليه مبتدئ الطب أولا ثم يليه آخر أقدم منه في الخبرة وهكذا إلى أن يصل إلى رئيس الأطباء الذي يقوم بالكشف واتخاذ القرار في دخول المريض البيمارستان لتلقي المزيد من العلاج كمريض داخلي[٤٥]. (وهذا لا يختلف كثيراً عما هو متبع في عصرنا الحديث).

ورئيس الأطباء كان يرأس الفريق الطبي في المرور اليومي على المرضى المنومين في عنابرهم. كتب الطبيب "ابن أبي أصيبعة" الذي درس الطب في دمشق والقاهرة وصاحب عيون الأنباء في طبقات الأطباء:

"إن أبا المجد بن أبي الحكم (رئيس الأطباء) كان يدور على المرضى به، ويتفقد أحوالهم، ويعتبر أمورهم وبين يديه المشارفون والقوام لخدمة المرضى. فكان جميع ما يكتبه لكل مريض من المداواة والتدبير لا يؤخر عنه ولا يتوانى في ذلك. قال: وكان بعد فراغه من ذلك وطلوعه إلى القلعة وافتقاده المرضى من أعيان الدولة يأتي ويجلس في الإيوان الكبير الذي للبيمارستان وجميعه مفروش، ويحضر كتب الاشتغال. وكان نور الدين[٤٦] رحمه الله قد وقف على هذا البيمارستان جملة كبيرة من الكتب الطبية وكانت في الخرستانين الذين في صدر الإيوان. فكان جماعة من الأطباء والمشتغلين يأتون إليه، ويقعدون بين يديه، ثم تجري مباحث طبية ويقرئ التلاميذ، ولا يزال معهم في اشتغال ومباحثة، ونظر في الكتب مقدار ثلاث ساعات ثم يركب إلى داره"[٤٧].

ويتبادر إلى الذهن هنا سؤال، نوجهه إلى أطبائنا في العصر الحديث: هل هذا الوصف الذي أورده ابن أبي أصيبعة عن نظام المرور اليومي للفريق الطبي على المرضى يختلف عما يحدث هذه الأيام؟ وأليس الاعتقاد السائد هو أن هذا النظام وردنا من الغرب؟ وبالتالي لنا الحق أن نسأل: أليس من الإجحاف في حق أجدادنا نسبة هذا النظام إلى الغرب؟ وأليس من العقوق في حقهم، عدم تدريس مادة تاريخ الطب العربي في كليات الطب لدينا؟ حتى يعلم الأحفاد ما فعله الأجداد، فيكون نبراساً لهم ودافعاً يدفعهم وثقة في نفوسهم تعينهم على بذل الجهد لاستعادة الدور الريادي لأجدادهم في مجال علم الطب.

نص لأمر تعيين أحد رؤساء الأطباء:

والنص التالي هو أمر تعيين أحد رؤساء الأطباء، أورده القلقشندي في صبح الأعشى. وهذا النص نورده على الرغم من طوله وصعوبة لغته، لأهميته ولإلقاء نظرة على بعض المراسلات الإدارية فيما يخص الشؤون الطبية.

ويبدأ النص بتعريف عام للطب، ثم تعريف صفات الطبيب الذي يسمح له بممارسة المهنة، ثم تبيان الحاجة إلى تعيين طبيب رئيساً للأطباء، بعدها يعدد الكاتب صفات وواجبات رئيس الأطباء المعين:

وهذه نسخة توقيع برياسة الطب، وهي:

الحمد لله مؤتي الحكمة من يشاء من عباده، ويعطي أمانة الأرواح من ترقى في حفظها إلى رتبة اجتهاده، وجاعل علم الأبدان أحد قسمي العلم المطلق في

حالي اجتماعه وانفراده، وموفق من جعل نصح خلق الله فيه مسبباً لسعادة دنياه وذخيرة صالحة ليوم معاده، ومبلغ من كان دائبا في إعانة البرية على طاعة ربها بدوام الصحة غاية مرامه وأقصى مراده ورافع رتبة من دل اختياره واختباره على وفور علمه ونجح علاجه وإصابة رأيه وسداده.

نحمده على نعمه التي خصت بنعمنا من كمل في نوعه وفصله وحسن في علمه وعمله قوله وفعله، وجمع من أمانة وظيفته ومعرفتها ما إذا جلس في أسنى مناصبها قيل: هذا أهله، ونشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تشرق البصائر، بأضوائها وتفرق الضمائر بإخلاصها من أدوائها وتغدق بيمنها أنواء التوفيق فتتأرج رياض الإيمان بين روائها وارواائها ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي أنارت ملته، فلم تخف على ذي نظر وعلت أدلته فلم ينلها من باع رويته قصر، وبهرت معجزاته فلو حاولت الأنفاس حصرها أفناها العي والحصر، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين كانوا لأدواء القلوب علاجا، ولسلسبيل الإيمان مزاجا وللبصائر السائرة في دجى الشبهات سراجا، صلاة دائمة الإقامة، متصلة الدوام إلى يوم القيامة وسلم تسليما كثيرا.

وبعد: فإن صناعة الطب علم موضوعها حفظ الأبدان النفيسة، ومقصودها إعانة الطبيعة على حماية الأعضاء الرئيسة، ومدارها الأعم، على معرفة العوارض وأسبابها ومدركها الأتم الوقوع على الصواب في معرفة الجسوم وأوصابها؛ وحينئذ تتفاوت رتب أهلها عند تشعب مداركها واختلاف مسالكها وتشابه عللها والتباس صوابها بخللها إذ لا يميز ذلك حق تمييزه إلا من طال في

العلم تبحره، وحسن في رتب هذا الفن تصدره، وطابق بين نقله وعلاجه وعرف حقيقة كل مركب من الأدوية ومفرد بعينه واسمه وصفته ومزاجه وتكررت عليه الوقائع فعرفها دربة وأحكمها نقلا ولقب بشرعه التقوى إذ كان الإقدام على النفوس قبل تحقق الداء والدواء مذموما شرعا وعقلا ولذلك تحتاج إلى رئيس ينعم في مصالحها نظره ويجمل في منافعها ورده وصدره، ويعتبر أحوال أهلها بمعيار فضله، ويلزم الداخل فيها ببلوغ الحد الذي لا بد منه بين أرباب هذا الشأن وأهله ويعرف لأكابر هذا الفن قدر ما منحهم الله من علم وعمل ويبسط رجاء المبتدئ إذا كمل نفسه حتى لا يكون له فيها بغير كمال الاستحقاق طمع ولا أمل.

ولما كان المجلس السامي القاضي الأجل الحكيم فلان الدين: هو الذي بلغ من العلم غاية مراده واحتوى من هذا الشأن على ما جمع به رتب الفاضلين فيه على انفراده، فلو عاصره "الرئيس" لاعتمد عليه في كليات قانونه، أو "الرازي" لعلم أن "حاويه" من بعض فنونه قد حلب هذا العلم أشطره وأكمل قراءة هذا الفن رموزه وأسطره، وحل أسراره الغامضة وارتوى من سحب رموزه بأنواء لم يشم غير فكره بروقها الوامضة وأسلف من خدمة أبوابنا العالية سفرا وحضرا ما اقتضى له مزية شكره، وتقاضى له مزيد التنبيه على قدره والتنويه بذكره وحمد فيه الفريدان: صحة نقله وإصابة فكره وعلم أنه جامع علوم هذه الصناعة فلا يشذ منها شيء عن خاطره ولا يغيب منها نقل عن ذكره ".

تعيين رئيس الأطباء

بعد قراءة أمر التعيين السابق نصه، يتبادر إلى الذهن سؤال: من يقوم بتعيين رئيس الأطباء؟

للإجابة عليه؛يجب ملاحظة التالي:

في المراحل المختلفة للدولة الإسلامية، أخذت العادة أن يقوم الخليفة بتعيين رئيس الأطباء في حاضرته، ويقوم الولاة بنفس الأمر في الولايات. فهكذا فعل هارون الرشيد عندما عين بختيشوع رئيسا للأطباء. كتب ابن أبي أصيبعة في ترجمته لبختيشوع بن جورجس في "عيون الأنباء في طبقات الأطباء": "وقال (يقصد هارون الرشيد) بختيشوع يكون رئيس الأطباء كلهم، وله يسمعون ويطيعون"(٤٩).

وقد مر معنا كيف أن الخليفة المقتدر عين "سنان بن ثابت بن قرة" رئيسا للأطباء. وفي العصور اللاحقة عندما ضعفت الخلافة وظهر السلاطين، كان السلطان يقوم بتعيين رئيس الأطباء في حاضرته، ونوابه يعينونهم في النيابات العامة. فقد كتب القلقشندي في صبح الأعشى في حديثه عن تعيين ولايات أرباب (يقصد رؤساء) الوظائف الصناعية: " كالأطباء والكحالين والجرائحية ومن جرى مجراهم من سائر أرباب الوظائف التي هي من تتمة نظام الملك، فما كان منها بالأبواب السلطانية فولايته عن السلطان بتوقيع من ديوان الإنشاء السلطاني، وما كان منها بالممالك الشامية فولايته إلى نواب السلطنة"(٥٠).

رئيس الكحالين (رئيس أطباء العيون):

وحكمه في الكلام عن طائفة الكحالين. حكم رئيس الأطباء في طائفة الأطباء[٥١].

رئيس الجرائحية (رئيس الجراحين):

وحكمه في الكلام عن طائفة الجرائحية والمجبرين كالرئيسين المتقدمين[٥٢].

obeikandl.com

الطبيب الخاص

منذ بدايات الخلافة اختص بعض الأطباء في علاج الخلفاء وأسرهم ثم الولاة والسلاطين وحاشيتهم. فكان ابن آثال" و "أبو الحكم الدمشقي" الطبيبين الخاصين لمعاوية بن أبي سفيان، وتياذوق الطبيب الخاص للحجاج بن يوسف الثقفي، "وبختيشوع بن جورجس " طبيب هارون الرشيد، و"جبرائيل بن بختيشوع" خدم الرشيد ثم ابنيه الأمين والمأمون، و"سلمويه بن بنان" متطبب المعتصم الذي أكرمه إكراما يفوق الوصف، وكان يرد إلى الدواوين توقيعات المعتصم في السجلات وغيرها بخط سلمويه، وموفق الدين بن المطران طبيب صلاح الدين الأيوبي، ومهذب الدين بن الحاجب الذي خدم صلاح الدين ثم الملك المنصور صاحب حماة، وأوحد الدين عمران بن صدقة الذي خدم الملك العادل وكان يتردد إلى خدمة الدور السلطانية بالقلعة.

هذه مجرد أمثلة ذكرناها لبعض أطباء الخلفاء والسلاطين والولاة. وقد تم تنظيم هذه الوظيفة في العصر الفاطمي على الوجه التالي:

"الصنف الثالث من أرباب الوظائف أصحاب الوظائف الصناعية، وأعظمها وظائف الأطباء، وكان للخليفة طبيب يعرف بطبيب الخاص (الطبيب الخاص) يجلس على باب دار الخليفة كل يوم. ويجلس على الدكك التي بالقاعة المعروفة بقاعة الذهب بالقصر دونه أربعة أطباء أو ثلاثة فيخرج الأستاذون فيستدعون

منهم من يجدونه للدخول على المرضى بالقصر لجهات الأقارب والخواص فيكتب لهم رقاعاً على خزانة الشراب فيأخذون ما فيها، وتبقى الرقاع عند مباشريها شاهدا لهم. ولكل منهم الجاري والراتب على قدره "[٥٣].

obeikandl.com

هوامش الفصل الثاني من الباب الثاني

١- انظـر فضـل الهـي: الحسـبة ص ٨-١٠.

٢- سورة آل عمران آية ١٠٤.

٣- سورة التوبة آية ٧١.

٤- ابن تيمية: الحسبة في الإسلام، ص ١٢-١٣.

٥- الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ٣٢٢.

٦- القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ٤٢٤/٥.

٧- الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص ١٠.

٨- القلقشندي: صبح الأعشى، مرجع سابق، ٤٢٥/٥.

٩- المـاوردي: الأحـكام السـلطانيـة، مـرجع سـابق، ص ٢٩٩، وأيضـاً الفـراء الحنبلي: الأحكام السلطانية ص ٢٨٥.

١٠- مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٨.

١١- أحمد مصطفى المراغي: الحسبة في الإسلام ص ٥-٦ نقلا عن فضل الهي: الحسبة ص ١٤.

١٢- عمر بن محمد بن عوض السنامي: أنظر نصاب الاحتساب ص ١٣-١٨.

١٣- الماوردي: الأحكام السلطانيـة، مـرجع سـابق، ص ٣٢٠، وأيضـاً الفـراء الحنبلي: الأحكام السلطانية ص ٣٠٥.

١٤- الفراء الحنبلي: الأحكام السلطانية ص ٢٨٤-٣٠٨.

١٥- ابن الأخوة القرشي: معالم القربة في طلب الحسبة ص ٤٧-٥٠.

١٦- القلقشندي: صبح الأعشى، مرجع سابق، ٣٧٨/١٢-٣٧٩.

١٧- الفراء الحنبلي: مرجع سابق، ص ٢٨٥.

١٨- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ٢٠٤/٢.

١٩- الفراء الحنبلي: مرجع سابق ص ٣٠٢.

٢٠- السنامي: نصاب الاحتساب ص ١٦-١٧.

٢١- القلقشندي: صبح الأعشى، مرجع سابق، ٢١٢/١١.

obeikandl.com

٢٢- الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص ٩٨.

٢٣- المصدر السابق نفسه ص ٩٩.

٢٤- المصدر السابق نفسه ص ٤٢.

٢٥- المصدر السابق نفسه ص ٨٩-٩٠.

٢٦- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ١٩١/٢.

٢٧- المقريزي: الخطط المقريزية ٤٦٣/١.

٢٨- القلقشندي: صبح الأعشى، مرجع سابق، ١٧/٤.

٢٩- المصدر السابق نفسه ٤٢٨/٥.

٣٠- في الأصل بياض، انظر صبح الأعشى ١٩/٤ حاشية رقم ٢.

٣١- القلقشندي: صبح الأعشى، مرجع سابق، ١٩/٤ و١٤٢/١١ حاشية رقم ١، وانظر القلقشندي: مسودة كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ص ٤١٦ هامش رقم ٤.

٣٢- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٨٥/٧.

٣٣- استطاع بعض الأطباء الوصول إلى مناصب الدولة الدينية والسياسية العليا، مثل مناصب القضاء والوزارة.

٣٤- القلقشندي: صبح الأعشى٤٣٨/٥-٤٣٩.

٣٥- المصدر السابق نفسه ٣٧١/٦.

٣٦- أنظر ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢٠٢/٢ و٢٠٤ و٣٩٤/٣ وأيضاً القلقشندي: صبح الأعشى ٢٠٠/٤ و٢٢٨/٤.

٣٧- القلقشندي: صبح الأعشى ١٦٠/٦.

٣٨- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مرجع سابق، ٢٠٢/٢.

٣٩- المصدر السابق نفسه ٢٠٤/٢.

٤٠- المصدر السابق نفسه ٣٤٣/٢.

٤١- القلقشندي: مصدر السابق ٤٣٨/٥-٤٣٩.

٤٢- الرهاوي: أدب الطبيب ص ٢٦٥ وأيضا نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص ٩٧-٩٨.

٤٣- سنتناول هذه المسؤوليات بالتفصيل في الباب الثالث من هذا الكتاب.

٤٤- القلقشندي: صبح الأعشى ٣٧٦/١١.

٤٥- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٣٤٥/٢.

٤٦- الملك العادل نور الدين زنكي واقف البيمارستان النوري بدمشق.

٤٧- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مرجع سابق، ٢/٢٥٦-٢٥٧.

٤٨- القلقشندي: صبح الأعشى، مرجع سابق، ١١/٣٧١-٣٧٣.

٤٩- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مرجع سابق، ٢/٤٣.

٥٠- القلقشندي: صبح الأعشى، مرجع سابق، ٩/٢٦٥.

٥١- المصدر السابق نفسه ٥/٤٣٩.

٥٢- المصدر السابق نفسه ٥/٤٣٩.

٥٣- المصدر السابق نفسه ٣/٥٦٩.

obeikandl.com

الفصل الثالث

تنظيم التعليم الطبي

تعليم (تدريس) الطب خلال عصور الحضارة العربية الإسلامية:

ناقشنا في الباب الأول من هذا الكتاب وتوصلنا إلى أن ظهور الإسلام كان سببا رئيسيا في تطور الطب كمهنة وكعلم خلال مراحل الحضارة العربية الإسلامية، بمحاربته للجهل والدجل والشعوذة وحثه على طلب العلم، بل جعل طلب علم الطب من فروض الكفاية تأثم الأمة إن لم يقم به أحد، ويسقط عنها إن قام به البعض.

قال الإمام الغزالي: "فليت شعري كيف يرخص فقهاء الدين في الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة (وهو فروع علم الفقه) وإهمال مالا قائم به (وهو الطب)؟"[١] وحض الرسول ﷺ على الاستعانة في كل علم وصناعة بأحذق من فيها فالأحذق. عن زيد بن أسلم أن رجلاً في زمان رسول الله ﷺ جرح، فاحتقن الجرح الدم، وأن الرجل دعا رجلين من بني أنمار، فنظرا إليه فزعما أن رسول الله ﷺ قال لهما: "أيكما أطب"؟ فقال: أوفي الطب خير يا رسول الله؟ فقال: "أنزل الدواء الذي أنزل الداء"[٢]. وقال ﷺ: "من تطبب ولم يعلم منه الطب قبل ذلك فهو ضامن"[٣].

وأصل الطب عند العرب لغويا الحذق بالأشياء والمهارة بها[٤] والطَّب بفتح الطاء هو العالم بالأمور[٥]. والطب علم، والطب صنعة (مهنة) وإن كان هذا وتلك فإنه يحتاج إلى تعلم.

وعلم الطب ينقسم إلى قسمين: نظري وعملي، ويحذر ابن سينا من الاعتقاد بأن المقصود من قولهم القسم النظري هو تعليم الطب والقسم العملي هو مباشرته، بل يعتبر قسمي الطب علما أحدهما: علم أصول الطب والآخر علم كيفية مباشرته[٦]. وكلا العلمين يحتاج إلى تعلم. ومر معنا أيضاً أمر الخليفة العباسي المقتدر بعدم السماح للأطباء بمزاولة الصنعة إلا بعد اجتيازهم "امتحان الطب" أمام رئيس الأطباء والحصول على تصريح عمل من قبل المحتسب.

لهذا أَولى أرباب المهنة وكبار الأطباء على مر العصور الإسلامية جلّ اهتمامهم لمحاربة الأطباء الجهلة ومنعهم من الممارسة حفاظا على حياة الأفراد، وحفاظا على شرف المهنة.

قال علي بن ربن الطبري: "الطبيب الجاهل مستحث الموت"[٧].

وقال أبو العلاء صاعد بن الحسن يصف الأطباء الجهلة: "ونجد القوم الذين هم أطباء بالاسم يعيبون العلوم ويرذلونها ويصدون من يصرف زمانه في قراءتها والاشتغال بها، ويلومون على التدقيق في العلوم ويعذلون على الحرص والاجتهاد على النظر فيها، ويتكلمون عن البخت ويحتجون بفوت زمان العلم، منهم أبدا على الجهل مقبلون وفي اللذات منغمسون يأكلون بشره الخنازير

ويشربون بعطش البط، ينامون كالموتى ويصبحون أطباء يتحكمون في أرواح المرضى"[٨].

وحذر الرهاوي في أدب الطبيب من دخلاء الطب الذين يمارسون الصنعة بدون تعلم لأصول المهنة: " ولأن هذه الآفة الداخلة على هذه الصناعة وعلى أهلها، حتى أوقعت في بعضهم الشك، وأكسبتهم سوء الظن بهم من كثير من الناس"[٩].

ومن هنا جاء حرص العلماء وكبار الأطباء على حث من أراد ممارسة مهنة الطب، بتعلم أصول المهنة بالطريقة الصحيحة ولهذا الغرض وضعوا كثيرا من الكتب والمقالات والفصول:

ابن رضوان: النافع في كيفية تعلم صناعة الطباعة.

هبة الله بن يوسف: المقالة الصلاحية في أحياء الصناعة الطبية.

إسحاق بن علي الرهاوي: أدب الطبيب.

الرازي: المنصوري - محنة الطبيب - الفصول (المرشد).

أبو العلاء صاعد بن حسن: التشويق الطبي.

والأمثلة الكثيرة التي يزخر بها كتاب "ابن أبي أصيبعة" "عيون الأنباء في طبقات الأطباء" حيث سيرة حياة كل طبيب ورد اسمه في هذا الكتاب تعطي مثلا وقدوة في طلب العلم.

obeikandl.com

وقد مر تنظيم تحصيل المعارف الطبية (أي دراسة الطب) قبل ممارسة المهنة بطورين أساسيين:

الطور الأول:

وهو يتمثل في المرحلة التي أطلقنا عليها مرحلة "ضحى الطب العربي " أو " عصر الترجمة " من مراحل تطور الطب في العصور الإسلامية، وتميز تعليم الطب في هذا الطور ببساطة التنظيم وفرديته وبدائيته مقارنة بالطور الثاني، بحيث لم يمنع من دخول أعداد كبيرة من الجهلة وأنصاف المتعلمين في مهنة الطب بدون ضابط يضبطهم أو رادع يردعهم، مما دعا كثيراً من كبار أطباء ذلك العهد وخاصة في نهايته مثل الرهاوي والرازي وغيرهم إلى المطالبة بتدخل الدولة لتنظيم المهنة، وطرد الجهلة منها.

وقد تميزت بدايات هذا الطور على الرغم من ظهور أسماء كبيرة مثل آل بختيشوع وآل ماسويه وآل الطيفوري وحنين بن إسحاق وابنه إسحاق وغيرهم، إلى قلة عدد المعلمين مقارنة بالحاجة إليهم ومقارنة بالأعداد الكبيرة للأطباء الذين في الخدمة. كما تميزت بدايات هذا الطور بظهور البيمارستانات وانتشارها؛ وإن كانت أعدادها لم تَفِ بالحاجة وتطورها لم يَفِ بالغرض في أن تتحول هذه البيمارستانات إلى أكاديميات لتعليم الطب كما حصل في الطور الثاني.

وفي هذا الطور توفرت كتب الطب اليوناني المترجمة إلى العربية على نطاق واسع،كما ظهرت الكتب المؤلفة لعلماء معاصرين وإن كانت تقليدية على نمط

التأليف اليوناني والسرياني بعيدة عن الأصالة التي ظهرت في كتب نهاية هذا العهد والعهد التالي.

لقد سادت في هذا الطور مدرسة الطب الجنديسابوري نسبة إلى الطب الذي مورس ودرس في بيمارستان جنديسابور الذي على نمطه بنيت البيمارستانات في العالم الإسلامي في ذلك العصر.

وفي الطور الأول ظهرت المجالس العلمية وإن كانت قليلة العدد. وكان على من يريد أن يتعلم مهنة الطب على أصول صحيحة أن يلتحق بأحد هذه المجالس، هكذا فعل حنين بن إسحاق (الذي مرت قصة كفاحه معنا)، فعندما أراد دراسة الطب التحق أولا بمجلس "يوحنا بن ماسويه" الذي كان أهم مجلس يكون في التصدي لتعليم صناعة الطب [١٠]. يصف يوسف بن إبراهيم هذا المجلس: "كان مجلس يوحنا بن ماسويه أعمر مجلس كنت أراه بمدينة السلام لمتطبب أو متكلم أو متفلسف "[١١].

وحنين بن إسحاق هذا أصبح له مجلس وتلاميذ يقرؤون عليه فكان من تلاميذه عيس بن علي وحبيش الأعسم الدمشقي وعيسى بن يحي بن إبراهيم[١٢].

وهكذا بدأت المجالس العلمية في التكاثر والانتشار. ومن سمات التعليم في هذه المجالس أنه كان يقوم على القراءة النظرية لكتب الأولين في الطب ويفتقر إلى التدريب العملي في البيمارستانات الذي ميز التعليم الطبي في الطور الثاني

وبالتالي ميز الطب العربي على وجه العموم وجعله يتفوق على الطب اليوناني، من حيث تحوله من علم فلسفي تأملي تجريدي إلى علم تطبيقي تجريبي واقعي.

وفي نهايات هذا الطور ظهر أطباء عظام قادوا عملية التحول من الطور الأول إلى الطور الثاني وبقيادتهم تمت عملية تحويل الطب من علم يغلب عليه النظر والفلسفة إلى علم تطبيقي تجريبي سريري له جزء نظري لا بد منه وجزء عملي لا غنى عنه فلابدّ من تعلمه. وقد يستغرب القارئ حينما يعلم أن أكبر طبيبين قادا هذا التحول، تعلما الطب في الطور الأول على هذه الطريقة التقليدية وهي التعلم من الكتب، بكثير من النظر والقليل من التدريب العملي، ولكن هذه حتمية التطور الذي فرض قوانينه التي اكتشفها هذان العظيمان. أولهما: المعروف بأبي الأطباء السريريين وأحد أعظم الأطباء على مر العصور: "أبو بكر زكريا الرازي"، وثانيهما الشيخ الرئيس "ابن سينا" الذي روى بنفسه قصة حياته ومشواره مع الدراسة والتعلم، سنقتطف منها ما يخص دراسته لعلم الطب: " ثم رغبت في علم الطب وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه، وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة. فلا جرم أني أبرزت فيه في أقلّ مدة حتى بدأ فضلاء الطب يقرؤون عليّ علم الطب "[١٢] وهو نفسه صاحب أحد أهم الكتب الطبية التي سيطرت خلال عصور طويلة سواء في الشرق أو الغرب ألا وهو "القانون في الطب".

والرازي هو صاحب "كتاب المنصوري" و "الحاوي" الذي هو عبارة عن مجموعة ضخمة من الملاحظات السريرية. وقد يخفُّ استغراب القارئ قليلاً إذا

علم أن هذا الطبيب الكبير الذي درس الطب على "علي بن ربن الطبري" بالطريقة التقليدية القديمة، كان سبب تعلمه الطب (وكان هذا على كبر): أنه عندما دخل بغداد زار أحد البيمارستانات وقابل أحد الصيادلة، فسأله سؤالا وأعجبه الرد، ثم رأى صبياً مولوداً بوجهين فسأل بعض الأطباء وأعجبه ما سمع، ولم يزل يسأل عن شيء فشيء ويقال له ويقال له حتى قرر تعلم الطب وكان منه جالينوس العرب[١٤]. ولنا أن نصدق هذه القصة أو لا نصدقها ولكنها في كل الأحوال ذات دلالة كبيرة على ظهور هذا الطبيب العظيم واهتماماته العملية السريرية.

ونستطيع أن نقول إن هذا الطور الأول انتهى فعليا بظهور الرازي، وانتهي رسميا بأمر الخليفة المقتدر بوجوب امتحان الأطباء قبل السماح لهم بممارسة المهنة. مما أوجب على الأطباء تقديم هذا الاختبار فأوقف من أوقف وعمل من عمل. ووجد هؤلاء أنه لا عمل لطبيب جاهل ناقص الدراية في ممارسة الصنعة.

الطور الثاني:

وهو يتمثل في المرحلة التي أطلقنا عليها "شمس الطب العربي" أو "عصر النضج" وقد تميز بالتالي:

■ ازدياد عدد البيمارستانات وتحولها إلى مدارس عليا لتعليم الطب وألحق بكل بيمارستان مكتبة وقاعة محاضرات (الإيوان الكبير)[١٥]. يلقي فيها رئيس الأطباء دروسه على تلاميذ الطب. وبعض البيمارستانات كان ملحقاً بها معاهد

علمية؛ فيحكى أن "ابن النفيس" عندما حضر إلى مصر من دمشق أصبح رئيساً للبيمارستان الصلاحي وعميداً للمدرسة الطبيعية الملحقة به(١٦).

■ توفر الكتب الطبية المترجمة من اليونانية وغيرها من اللغات ككتب جالينوس وأبقراط واقليدس وغيرهم وقد توفرت هذه منذ الطور الأول، ثم أضيف إليها ذلك العدد الكبير من المصنفات الطبية الأصيلة التي وضعها علماء الأطباء في الحضارة العربية الإسلامية. وقد مر معنا كيف أن هؤلاء العلماء أخضعوا ما قرؤوه وما ترجموه خاصة من الطب اليوناني القائم على الفلسفة النظرية التأملية على المحك اليومي وللتجربة العملية، فقبلوا ما ثبت صلاحه وأبطلوا ما ثبت بطلانه. ثم أضافوا إليه ما توصلوا هم إليه بالملاحظة والمشاهدة والتجربة والاختبار والممارسة الفعلية لعلم المعالجة والشفاء على المرضى، وما ابتدعوه من طرق في العلاج والتشخيص والمعاينة. وقد انفردت مصنفاتهم بالواقعية والموضوعية عمّن سبقهم فكانت نبراساً لأوروبا في مستقبل الأيام.

■ توفر أطباء علماء على مستوى التعليم العالي مما أدى إلى انتشار مجالس العلم على نطاق واسع لتدريس أصول الطب (الجزء النظري). وكذلك قام هؤلاء الأطباء العلماء بتدريس الطب عملياً بجانب أسرّة المرضى، مما اقتضى على طلبة الطب أن يكونوا في احتكاك دائم مستمر مع المرضى. وكان هؤلاء الطلبة يقومون بتدوين نتائج تطبيق ما تعلموه نظريا، مع ما يشاهدونه ويلاحظونه بأنفسهم من طرق كشف وعلاج كبار الأطباء وما يسمعونه من مناقشات علمية تتم بين أساتذتهم التي يشتركون فيها في كثير من الأحيان.

فطبيعة مهنة الطب تتطلب تدريسها إلى جانب أسرّة المرضى تدريساً عملياً وهذا ما ميز العرب عمّن سبقهم من الفرس والإغريق وعن معاصريهم في أوروبا، فأول مرة يتم إلقاء محاضرة طبية بين الأسرّة في أحد المستشفيات الأوروبية ألقاها طبيب إيطالي فيروني وهو شارح لابن سينا، حدث ذلك في أواسط القرن السادس عشر الميلادي أي بعد عدة قرون من بدء ذلك في الحضارة العربية الإسلامية وكان حدثاً عظيماً لديهم(١٧).

في بدايات الطور الثاني ظهر في المجتمع الطبي خلاف على كيفية تعلم مهنة الطب بين المدرسة القديمة التي كان يتزعمها علي بن رضوان رئيس أطباء مصر الذي لم يكن له في صناعة الطب معلم ينسب إليه فتعلم الطب من الكتب، حيث أصدر كتاباً تضمن نظريته التي تتلخص في أن تحصيل الصناعة من الكتب أوفق من تحصيلها من المعلمين(١٨)، وبين المدرسة الحديثة التي عبر عنها "ابن بطلان" والتي تنادي بالقراءة على العلماء أي عن طريق المعلم والمحاضرات والكتب، والتي تطورت بعد ذلك إلى التدريس العملي بجانب أسرة المرضى.

وقد رد "ابن بطلان على ابن رضوان" في كتاب أصدره، أفرد فيه فصلا في العلل التي لأجلها صار المتعلم من أفواه الرجال أفضل من المتعلم من الصحف إذا كان القول واحدا. وأورد سبعة أسباب، كنا نود أن نوردها هنا لأهميتها وطرافتها ولكن منعنا من ذلك عدم رغبتنا في الإطالة والخروج عن الموضوع(١٩).

ولقد انتصرت طريقة "ابن بطلان" في التعليم العملي للطب. ونعتقد أن "ابن رضوان" نفسه قد تراجع عن رأيه حيث نجد أنه وضع شروطا لمعلم الطب وأخرى

لمتلقي العلم. وأوضح لطالب الطب كيفية الكشف العملي على المريض. وسنتحدث عن كل هذه الأمور في الصفحات القادمة.

وبتوافر هذه المقومات الثلاثة الضرورية لتعليم مهنة الطب:

- توافر البيمارستانات.

- توافر الأطباء على مستوى التعليم العالي.

- توافر المؤلفات والمصنفات الطبية.

وصلت المؤسساتُ العلميةُ لتدريس الطب إلى قمة التطور والرقي والتنظيم الدقيق فوضعت نظما:

- لاختيار المعلم.

- لاختيار طالب الطب.

- لمراحل التعليم قبل الحصول على إذن بممارسة المهنة (بلغة العصر التعليم الجامعي).

- التعليم المستمر وبغرض التفقه في علم الطب (بلغة العصر التعليم العالي).

- للامتحانات.

obeikandi.com

معلم الطب

اختيار معلم الطب:

لقد مر معنا أن رئيس الأطباء هو المسؤول الأول عن التعليم الطبي في منطقته. وتعرفنا على الشروط الواجب توافرها فيه ورأينا أنه لجلال منصبه فإنه يتم اختياره من الخليفة أو السلطان في حاضرة البلاد ومن نوابهم في الولايات التابعة. وإن كان اختياره يتم من رأس الدولة؛ فإنه لا يتم اعتباطا بل بشروط محددة أهمها أن يكون أعلم زمانه، فقد رأينا كيف تم اختيار "الرازي" رئيسا لأطباء البيمارستان العضدي من ضمن مئة مرشح وبعد اختبارات عديدة.

الخصال التي يجب أن يتحلى بها معلم الطب:

لقد وضع علي بن رضوان سبع خصال لمعلم الطب حيث قال: " المعلم لصناعة الطب هو الذي اجتمعت فيه هذه الخصال بعد استكماله صناعة الطب "، فمطلبه الأول أن يكون عالما بكامل الصناعة ثم يضع خصاله السبع ومعظمها تتعلق بسلوكيات الطبيب:

- أن يكون تام الخلق صحيح الأعضاء حسن الذكاء جيد الروية عاقلاً ذكوراً خيّر الطبع.

- أن يكون حسن الملبس طيب الرائحة نظيف البدن والثوب.

- أن يكون كتوما لأسرار المرضى لا يبوح بشيء من أمراضهم.

- أن تكون رغبته في إبراء المرضى أكثر من رغبته فيما يلتمسه من الأجرة، ورغبته في علاج الفقراء أكثر من رغبته في علاج الأغنياء.

- أن يكون حريصاً على التعليم والمبالغة في منافع الناس.

- أن يكون سليم القلب عفيف النظر صادق اللهجة لا يخطر بباله شيء من أمور النساء، والأموال التي شاهدها في منازل الأعلاء فضلاً عن أن يتعرض إلى شيء منها.

- أن يكون مأموناً ثقة على الأرواح والأموال، لا يصف دواء قتالاً ولا يعلمه، ولا دواء يسقط الأجنة، يعالج عدوه بنية صادقة كما يعالج حبيبه[٢٠].

وهذه صفات أحد أساتذة الطب الكبار ولاه الملك العادل رئاسة أطباء ديار مصر بأسرها وأطباء الشام، ومؤسس مدرسة الدخوار الطبية، وصفه تلميذه "ابن أبي أصيبعة": " هو شيخنا الإمام الصدر الكبير، العالم الفاضل مهذب الدين أبو محمد عبد الرحيم بن علي بن حامد ويعرف بالدخوار. وكان رحمه الله أوحد عصره، وفريد دهره، وعلامة زمانه وإليه انتهت رياسة صناعة الطب ومعرفتها على ما ينبغي، وتحقيق كلياتها وجزئياتها. ولم يكن في اجتهاده من يجاريه، ولا علمه من يماثله"[٢١].

والدخوار هذا أوقف منزله في دمشق ليكون مقراً لمدرسة تُدرّس فيها من بعده صناعةُ الطب، وأوقف لها أيضاً ضياعاً وعدة أماكن ليُستغلَّ ما ينصرف في

مصالحها. واستنّ سنة جديدة حيث أوصى أن يكون الحكيم شرف الدين علي بن الرحبي مدرسا فيها من بعده. أي أن يكون المسؤول الأول عن التعليم فيها وهذا التعيين يتم عادة من قبل السلطان أو نوابه. ويخبرنا ابن أبي أصيبعة أن "ابن الرحبي" استمر يدرس فيها سنين عديدة إلى أن ملك دمشق الملك الجواد مظفر الدين حفيد الملك العادل، حيث كتب للحكيم بدر الدين ابن قاضي بعلبك منشورا برياسته على سائر الحكماء في صناعة الطب، وأن يكون مدرسا للطب في مدرسة الدخوار[٢٢].

نص لأمر تعيين أحد رؤساء الأطباء معلما للطب:

ولقد أورد القلقشندي في "صبح الأعشى في صناعة الإنشا" أمرا سلطانيا بتعيين أحد الأطباء مسؤولا عن التعليم في البيمارستان المنصوري بالقاهرة. ونكرر هنا ما قلناه من قبل: إننا نورد مثل هذه النصوص كاملة بغرض التعرف على المراسلات والأوامر الإدارية التي تخص الطب في تلك العصور، وهذا النص يتضمن إلى جانب ذلك نظرة السلطان إلى الطب والقائمين عليه، وأهمية بناء البيمارستانات التي لا تقل عن أهمية بناء المدارس، وضرورة الاهتمام بطلبة الطب وبعلم الطب. والشروط والمواصفات التي يجب أن يتحلى بها معلم الطب والواجبات والأهداف التي عليه تحقيقها:

"هذه نسخة توقيع بتدريس الطب بالبيمارستان المنصوري/كتب بها (لمهذب الدين) وهي:

الحمد لله الذي دبر بحكمته الوجود، وعم برحمته كل موجود، وحال بنفع الدواء بين ضر الداء كما حالت عطاياه دون الوعود؛ نحمده ونشكره وهو المشكور

المحمود، ونثني عليه خير الثناء قياما وقعودا وعلى الجنوب وفي السجود، ونستزيده من فضله فإنه أهل الفضل والجود.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة الله بها والملائكة، وأولو العلم شهود؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله المبشر لأمته بالجنات والخلود، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة دائمة إلى يوم الوعود. وبعد فإنّا لما أقام الله بنا شعائر الإيمان، وأصبح دينه بحمد الله منصورا بنا على سائر الأديان، وجاهدنا في الله حق الجهاد باليد والقلب واللسان، وشيدنا لعلومه وشرائعه كل بديع الإتقان، ورتبنا فيه من العلماء الأعيان كل رفيع الشأن، واخترنا له الأخيار من أهل العلم بالطب والفقه والحديث والقرآن؛ ورأينا كل من تقدمنا من الملوك، وإن سلك في سياسة الرعية أحسن سلوك، قد اهتم بعلم الأديان وأهمل علم الأبدان، وأنشأ كل منهم مدرسة ولم يحفل ببيمارستان، وغفل عن قوله ﷺ:" العلم علمان "[٢٣]، ولم يأخذ أحدا من رعيته بالاشتغال بعلم الطب المضطر إليه، ولا وقف وقفا على طلبة هذا العلم المنصوص عليه، ولا أعد له مكانا يحضر من يشتغل بهذا الفن فيه، ولا نصب له شخصا يتمثل هذا المشتغل لديه - علمنا نحن بحمد الله تعالى من ذلك ما جهلوه، وذكرنا من هذه القربة ما أهملوه، ووصلنا من هذه الأسباب الدينية والدنيوية ما فصلوه، وأنشأنا بيمارستانا يبهر العيون بهجة، ويفوق الأبنية بالدليل والحجة، ويحفظ الصحة والعافية على كل مهجة؛ لو حلّه من أشفى لعوجل بالشفا، أو جاءه من أكمده السقم لاشتفى، أو أشرف عليه العمر بلا شفاء لعاد عنه بشفا؛ ووقفنا عليه من الأوقاف المبرورة ما يملأ العينين، ويطرق سماع جملته الأذنين، ويعيد عنه من أمّه مملوء اليدين، وأبحنا التداوي

فيه لكل شريف ومشروف ومأمور وأمير، وساوينا في الانتفاع به بين كل صغير وكبير، وعلمنا أن لا نظير لنا في ملكنا ولا نظير له في إبقائه فلم نجعل لوقفه وشرطه من نظير، وجعلنا فيه مكانا للاشتغال بعلم الطب الذي كاد أن يُجهل، وشرعنا للناس إلى ورد بحره أعذب منهل، وسهلنا عليهم من أمره ما كان الحلم به من اليقظة أسهل، وارتدنا له من علماء الطب من يصلح لإلقاء الدروس، وينتفع به الرئيس من أهل الصناعة والمرؤوس، ويؤتمن على صحة الأبدان وحفظ النفوس، فلم نجد غير رئيس هذه الطائفة أهلا لهذه المرتبة، ولم نرضى لها من لم تكن له هذه المنقبة، وعلمنا أنه متى وليها أمسى بها معجبا وأضحت به معجبة.

ولما كان المجلس السامي "مهذب الدين" هو الرئيس المشار إليه، والوحيد الذي تعقد الخناصر عليه، وكان هو الحكيم "أبقراط"، بل الجليل "سقراط" بل الفاضل "جالينوس"، بل الأفضل "ديسقوريدوس". اقتضت الآراء الشريفة أن تزاد جلالته بتولّيه هذا المنصب الجليل جلالة، وأن تزف إليه تجر أذيالها، ويزف إليها يجرر أذياله، وأن يقال: (لم يك يصلح إلا لها ولم تك تصلح إلا له).

فلذلك رسم بالأمر الشريف -لا زال للدين ناصرا ولأعلام العلوم ناشرا- أن يفوض إليه تدريس الطب بالبيمارستان المبارك المنصوري، المستجد الإنشاء بالقاهرة المحروسة، علما بأنه المتمهر في هذا الفن، وأنه عند الفراسة فيه والظن، وأنه سقراط الإقليم إذا كان غيره سقراط الدّن، وثقة بأن للجوهر قد التقطنا، وبالخير قد اغتبطنا، وعلى الخبير قد سقطنا.

فليتلق هذه النعمة بالشكر الجليل، والحمد الجزيل، والثناء الذي هو بالنماء والزيادة كفيل، ولينتصب لهذا العلم المبارك انتصاب من يقوم بالفرض منه والسنة، ويعرف له فيه الفضل ويتقلد له فيه المنة، ويثنى على آثاره الجميلة فيه وتثنى إليه الأعنة، وليبطل بتقويمه الصحة ما ألفه ابن "بطلان"، ويرنا بتدبيره جبلة البر فإنه "جالينوس" الزمان، وليبذل النجاة من الأمراض والشفاء من الأسقام فإنه "ابن سينا" الأوان، وليجمع عنده شمل الطلبة، وليعط كل طالب منهم ما طلبه، وليبلغ كل متمن من الاشتغال أربه، وليشرح لهم صدره، وليبذل لهم من عمره شطره، وليكشف لهم من هذا العلم المكنون سره، وليرهم ما خفي عنهم منه جهره، وليجعل منهم جماعة طبائعية، وطائفة كحالين وجرائحية، وقوما مجبرين، وبالحديد عاملين، وأخرى بأسماء الحشائش وقوى الأدوية وأوصافها عالمين، وليأمر كلا منهم بحفظ ما يجب حفظه، ومعرفة ما يزيد به حظه، وليأخذه بما يصلح به لسانه ولفظه، ولا يفتر عنهم في الاشتغال لحظة، وليفرد لكل علم من العلوم طائفة.

ولكل فن من فنونه جماعة بمحاسنه عارفة؛ وليصرف إليهم من وجوه فضائله كل عارفة، وليكشف لهم ما أشكل عليهم من غوامضه فليس لها من دون إيضاحه كاشفة، لينشر في هذا المكان المبارك من أرباب هذه العلوم قوم بعد قوم، ويظهر منهم في الغد -إن شاء الله- أضعاف ما هو ظاهر منهم اليوم؛ وليقال لكل من طلبته إذا شرع في إجازته وتزكيته: لقد أحسن شيخه الذي عليه تأدب، وإن من خرّج هذا "المهذّب" عاملا في ذلك بشروط الواقف أعز الله نصره، واقفا عند أمره أمضى الله أمره؛ والخير يكون، إن شاء الله تعالى"[٢٤].

طالب الطب

كما اعتبر علماء الحضارة العربية الإسلامية طلب علم الطب فرض كفاية تأثم الأمة إذا لم يقم به أحد منها، ويسقط عنها الإثم إذا قام به البعض، وحثوا طلبة العلم على طلب علم الطب لحاجة الأمة للأطباء، ومر معنا في النص السابق في أمر الملك المنصور قلاوون بتعيين أحد الأطباء مسؤولا عن التعليم في البيمارستان المنصوري: عتابه على من سبقه من السلاطين لاهتمامهم بإنشاء المدارس وإهمالهم إنشاء البيمارستانات ولم يحثوا رعاياهم بالاشتغال بعلم الطب المحتاج إليه، ولم يوقفوا أوقافا على طلبة هذا العلم... إلخ.

على الرغم من هذا الموقف التشجيعي على طلب علم الطب فإنهم لم يسمحوا لأي شخص أن يحصل على هذا الشرف ويكون من طالبي علم الطب، فقد اعتبروا علم الأبدان من أشرف العلوم لشرف موضوعه ومسيس الحاجة إليه، والبعض قدم علم الأبدان على علم الأديان كما نقلوا عن الإمام الشافعي[٢٥]، فأجلّوا وعظّموا هذه الصناعة ووضعوا مواصفاتٍ وشروطاً قاسية لمن يريد أن يتعلم هذه المهنة لإبعاد الأراذل وساقطي الهمة عنها[٢٦].

وقد صنف كثير من الأطباء الأساتذة كتباً ومقالات وفصولاً في الصفات التي يجب أن يتحلى بها طالب الطب، وحيث أن الكثير منها من السلوكيات البشرية الحميدة؛ فهي أيضا يجب أن يتصف بها الطبيب بعد تخرجه، من هذه

الكتب: أدب الطبيب؛ للرهاوي الذي أفرد بابا عنوانه "في أن صناعة الطب لا يصلح أن يعلّمها كل من التمسها لكن اللائقة بهم في خلقهم وأخلاقهم ".

والتشويق الطبي؛ لأبي العلاء صاعد. الذي أفرد الباب الثالث للحديث عن صفة الطبيب الماهر الذي يستحق التقدم على من ينتحل هذه الصناعة وينتمي إليها، والباب السادس للحديث عن حجج مدعي هذه الصناعة وإقامة عذره في إهماله النظر والقراءة والبحث والمذاكرة، وهو يعدد في هذا الباب الصفات السيئة لمدعي الطب، الذين كان يجب منعهم من دراسة الطب وممارسة المهنة.

كتاب النافع في كيفية تعلم صناعة الطب؛ لابن رضوان، وغيرها من الكتب والمقالات التي لا حصر لها ،لكثير من كبار أطباء تلك العصور مثل الرازي والشيرازي والمجوسي وداود الأنطاكي...

الصفات المشترطة في طالب الطب:

نستطيع أن نجمل هذه الصفات المشترطة في طالب علم الطب في قسمين رئيسيين:

أولهما: ما يتعلق بسلوكياته وأخلاقه.

ثانيهما: ما يتعلق بصفاته الجسمانية والعقلية والنفسية.

الصفات التي تتعلق بالأخلاق والسلوكيات:

- أن يكون مؤمناً متمسكاً بدينه ملازماً لشريعته[٢٧] لأنه إن كان كذلك فإنه

سيستحي من الله عز وجل ذكره الذي أنعم على الناس بصناعة الطب وجعل لها أفاضل يستحقون تعلمها، يخافونه ويرهبونه قبل الإقدام على تعلمها، فضلاً عن العمل بها[٢٨].

- أن يكون حسن الخلق غير شره إلى الكسب ولا حاسد على المال[٢٩]. أي يجب أن تكون رغبته في إبراء المرضى أكثر من رغبته فيما يلتمسه من الأجرة[٣٠]. وعلى المعلم أن يتأكد من أن هذه هي رغبته الحقيقية وليس همّه التجارة والاهتمام بكسب الدراهم وطلب الملذات من حيث أمكنه ذلك، فإن من كان كذلك فلا خير فيه في هذه الصناعة ولا نفع عنده[٣١].

- أن يكون كتوما للأسرار قليل المزاح والهزل غير مغرى بشرب الخمر ولا مولع بالفسق والفجور[٣٢]، وعلى المعلم أن ينظر في ماضي الطالب وصباه وهل هذه الصفات أصيلة فيه أم كان متشاغلا بالأكل والشرب واللعب بالشطرنج وبمصاحبة الجهال والسفهاء والرعاع[٣٣].

- أن يكون رحيما بالضعفاء والفقراء[٣٤]، كثير الرحمة والمعروف لا على طريق البذخ بذلك والتصيد به، لكن يريد الخير لذات الخير[٣٥].

- أن يكون حريصا على التعليم[٣٦]، مواظبا على دراساته وقراءته ونظره في علوم الأوائل[٣٧]، وعلى المعلم أن يتساءل هل تراه (فعلاً) كثير الدرس للكتب مذاكرا لأهل العلم ومجالسهم؟[٣٨].

- أن يكون حسن الملبس طيب الرائحة نظيف البدن والثوب[٣٩].

إذا أردنا إجمال هذه الصفات الأخلاقية والسلوكية التي يجب أن يتحلى بها طالب الطب والطبيب نستطيع أن نقول: يجب أن يتحلى بالرحمة والرأفة والرفق والعفة والقناعة والشجاعة والسخاء والصدق وكتمان السر مع الاجتهاد في اقتناء صناعته ودرس كتبها والمعاناة لأعمالها[٤٠].

الصفات الجسمانية والعقلية والنفسية:

كان اعتقادهم يقوم على أن الطبيب وطالب الطب أيضاً يجب أن يتحلى بصفات أخلاقية وسلوكية معينة (وقد تحدثنا عنها)، وصفات بدنية وعقلية ونفسية لا بد أن يتحلى بها طالب الطب (الطبيب) يقول الرهاوي في أدب الطبيب: " لا تجد كل إنسان يصلح لقبول صناعة الطب، لكنه ينبغي أن يكون البدن والنفس ملائمين لقبولها"[٤١].

وقد أجمعوا على أن طالب الطب (الطبيب) يجب أن يكون:

- سليم البدن صحيح الأعضاء معتدل المزاج.
- عاقلاً ذكياً.
- ذكوراً لما قد تعلمه (جيد الذاكرة).

وقد أضاف البعض الذين ساروا على درب قدماء اليونان بعض الصفات البدنية الأخرى مثل شكل الأصابع حيث يجب أن يكون الذي فيما بينهما واسعا، وأن يكون الإبهام مقابل السبابة[٤٢].

وللمعلم أن يختبر من المتعلم حالات نفسه قبل أن يعلمه، فإن وجدها موافقة للتعليم أخذ في تعليمه، وإن وجدها غير موافقة رام إصلاحها، فإن تهيأ صلاحها وإلا هان العلم(٤٣).

شروط أخرى يشترطها المعلم:

إلى جانب هذه الصفات اشترط بعض الكتاب شروطا أخرى يجب توافرها في طالب الطب قبل تعليمه. مثل أن يكون طالب الطب سليل عائلة مارس أفرادها الطب، وحجتهم في ذلك أن سليل العائلات الطبية يسهل عليه التعلم لنشأته في بيئة علمية وتلقيه التربية الصحيحة اللازمة للتحلي بالصفات الحميدة.

يقول الرهاوي: " يجب أن يكون ملتمس هذه الصناعة من أولاد أهلها؛ قد عنى أبواه بتقويم مزاجه، وأخذاه بالعادات المحمودة في تدابيره وإصلاح أخلاقه... ليكون بذلك معدا للتعليم بأيسر سعي. فأما ملتمس هذه الصناعة من أبناء أهل الصنائع الاخرى فيكد وما ينجح في تعلمها، لأن النجار والحداد والدباغ والحائك...، لا خبرة له بصناعة الطب، ليلقن ولده من أصولها ما يلقنه الطبيب لولده ليله ونهاره"(٤٤).

لهذا اشتهرت عوائل توارثت صنعة الطب مثل عائلة بختيشوع التي توارثته لعدة أجيال، وعائلة الطيفوري وعائلة ماسويه وعائلة ثابت بن قرة، وعائلة "ابن أبي أصيبعة" صاحب كتاب "عيون الأنباء في طبقات الأطباء" فقد كان جده وأبوه

وعمه من الأطباء. ولكن على الطرف الآخر فإن كثيراً من الأطباء العظام في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية لم يأتوا من أسر توارثت الطب؛ فأحد أعظم الأطباء على مر العصور "الرازي" لم يولد في عائلة طبية، وكذلك الشيخ الرئيس "ابن سينا" و"علي بن رضوان" رئيس أطباء مصر في عصر الحاكم بأمر الله كان أبوه فراناً.

وهناك شروط خاصة قد يشترط المعلم على تلميذه أن يوفيها قبل أن يبدأ تدريسه أو متطلبات يطلبها منه أثناء سنوات الدراسة.

مثل أن يجد المعلم أن الطالب ضعيف لغوياً فيطلب منه أن يدرس أولا علم النحو.

أو كما طلب أبو الفرج بن الطيب من تلميذيه الأعجميين أن يحجا أولاً إلى مكة قبل أن يسمح لهما بتعلم الطب لأنهما سخرا منه[٤٥].

أو ما فعله أبو مروان بن أبي العلاء بن زهر مع طالبين من طلبته حينما وجدهما يقرآن كتاباً في المنطق، فصادر الكتاب وأوقفهما من دراسة الطب وأمرهما أن يجيدا حفظ القرآن وأن يشتغلا بقراءة التفسير والحديث والفقه، وأن يواظبا على مراعاة الأمور الشرعية، وعندما امتثلوا لذلك أعاد إليهما الكتاب المصادر وقال: الآن صلحتم لأن تقرءوا هذا الكتاب. وواصل تعليمهم الطب[٤٦].

الحد المطلوب من الثقافة العامة قبل دراسة الطب:

ومن المتطلبات الأساسية لطالب الطب إلى جانب الصفات والشروط السابقة قبل الالتحاق بأحد معلمي المهنة، أن يكون لديه حد أدنى من الثقافة العامة والعلوم الأولية الضرورية لعلم الطب. ولهذا السبب كان المعلمون يفضلون الطلبة الآتين من بيئات علمية. فرشيد الدين علي بن خليفة (عم ابن أبي أصيبعة) وهو سليل عائلة طبية قام قبل دراسته الطب بحفظ القرآن وأتقن علم الحساب، وأثناء دراسته للطب تعلم علم الموسيقى وعلم النجوم وعلم الحكمة. ورشيد الدين هذا من أطباء القرن السابع الهجري. ولنعلم مثلا أهمية علم الموسيقى لطالب الطب لنرجع إلى ابن سينا في قانونه حين ينتقد جالينوس لوصفه النظري المعقد للنبض الذي يصعب فهمه والإلمام به، ثم يبين أن ذلك يسهل على من له دراية بعلم الموسيقى ثم يأخذ بشرح النبض بمقارنته بالنغمات والوقفات[٤٧].

نظام الدراسة بغرض دخول امتحان الطب والحصول على إذن ممارسة الصنعة

الهدف:

الغرض من هذه المرحلة هو الحصول على الحد الأدنى من المعرفة اللازمة من علم الطب لممارسة الصنعة، فهم كانوا يؤمنون أن علم الطب علم طويل ومتشعب يصعب تعلمه كله في سنوات قليلة كما يصعب بلوغ الكمال فيه يقول الرازي:

" العمر يقصر عن الوقوف على فعل كل نبات في الأرض، فعليك بالأشهر مما أجمع عليه..."(٤٨).

إذا كان هذا في أحد فروع علم الطب فكيف الطب كله؟

ويرجع الرهاوي صعوبة الصناعة وطولها إلى كثرة أصولها ومن الأحرى أن تكون فروعها أكثر بكثير، ولاشتباك أصولها وفروعها بعضها ببعض. ثم يخبرنا كيف أن الإسكندرانيين (وهم الذين انتهت إليهم قيادة الطب الإغريقي قبل الفتح الإسلامي كما مر علينا في الباب الأول) عندما وجدوا أن أحداث زمانهم لا تبلغ بأكثرهم هممهم إلى قراءة جميع الكتب التي تركها اليونانيون في أصول الطب وفروعه وخاصة تلك التي وضعها جالينوس في أصول الطب؛ فأرادوا تقريب صناعة الطب من المتعلمين لها، فرتبوا من كتب جالينوس ستة عشر كتابا وجمعوا هم أيضا جوامع لأكثرها، طلبا منهم للإيجاز والاختصار(٤٩).

في الصفحات السابقة مر معنا ما قاله ابن سينا (وأجمع عليه الجميع) إنَّ علم الطب ينقسم إلى قسمين نظري وعملي: والمقصود بالنظري علم أصول الطب. والمقصود بالعملي: علم كيفية مباشرته. وكلاهما علم يحتاج إلى تعلم.

ولنرَ الآن كيف كان يتم ذلك:

مجالس العلم (مجالس التعليم):

كان القسم النظري يتم تدريسه في مجالس العلم لدى كبار الأطباء. ومجالس العلم هذه انتشرت في ربوع العالم الإسلامي خلال عصوره المختلفة بدءاً من بدايات الدولة العباسية. ومن أقدم مجالس العلم الطبية: مجلس يوحنا بن ماسويه، يصف يوسف بن إبراهيم هذا المجلس بأنه كان من أهم المجالس في التصدي لتعليم صناعة الطب(٥٠). وهذا المجلس هو الذي حاول "حنين بن إسحاق" الالتحاق به؛ فحصل له ما حصل كما سبق ذكره. وبعد أن اشتهر حنين هذا أصبح له مجلس تخرج منه كثير من مشاهير الطب العربي. و مجلس علم أمين الدولة الذي بلغ عدد الطلبة فيه الخمسين. وصفه ابن أبي أصيبعة نقلا عن موفق الدين البغدادي الذي قال:" ودخل إليه رجل منزف يعرق دما في زمن الصيف، فسأل تلاميذه وكانوا قدر خمسين نفسا فلم يعرفوا المرض.. "(٥١).

ومجلس تعليم "ابن التلميذ" ومجلس تعليم "ابن المطران" ومجلس تعليم موفق الدين البغدادي ومجلس تعليم أبي المجد بن أبي الحكم. وبفضل "ابن أبي أصيبعة " استطعنا أن نحصل على وصف كامل لأحد هذه المجالس التي تلقّى

علم الطب فيها، حينما قام بوصف أيام دراسته في المجلس وكيف كان هو وزملاؤه يتحاورون وكيف كانوا يتذاكرون ويتدارسون على يد معلمهم مهذب الدين عبد الرحيم بن علي المعروف بالدخوار.

وقبل أن نتعرف على الأماكن التي كانت تعقد فيها هذه المجالس؛ لنقم بزيارة أحدها للتعرف عليه من الناحية الشكلية، والمجلس الذي سنقوم بزيارته هو مجلس مؤسس الطب السريري، الذي على يديه تم تحول الطب من علم نظري إلى علم تطبيقي عملي، إنه "مجلس علم" أبي بكر الرازي:

كان الرازي يتوسط حلقة الدرس، وحوله ثلاث حلقات، أقربها إليه يجلس فيها الطلبة المتقدمون في الدراسة وتلاميذه من الأطباء، وفي الحلقة الثانية الطلبة الأقل خبرة ويعتبرون تلاميذا للجالسين في الحلقة الأولى وفي الحلقة الأخيرة المبتدئون. ويقوم أسلوب التدريس على قراءة الطالب على أستاذه الكتاب المقرر ثم المحاورة والنقاش العلمي العام، حيث تحق المشاركة لجميع من وصل من العلم مرحلة يستطيع أن يساهم في إثراء النقاش العلمي.

وإذا دخل مريض على هذا المجلس يقوم أحدهم من الحلقة الأخيرة أي أحد المبتدئين بسماع شكواه والكشف عليه وعلاجه إن أمكنه ذلك، وإلا قام طبيب من الحلقة الثانية إن أمكنه فعل شيء كان بها وإلا ذهب المريض إلى شخص من الحلقة الأولى، وإذا لم يستطع الطبيب من هذه الحلقة مساعدة المريض، تدخل معلمهم "الرازي" للكشف على المريض.

وصف "ابن أبي أصيبعة" هذا المجلس وطريقة العمل فيه في عيون الأنباء:

"وكان يجلس في مجلسه (يقصد الرازي) ودونه التلاميذ، ودونهم تلاميذهم ودونهم تلاميذ آخرون، فكان يجيء الرجل فيصف ما يجد لأول من يلقاه، فإن كان عندهم علم وإلا تعداهم إلى غيرهم، فإن أصابوا وإلا تكلم الرازي في ذلك"(٥٢).

أماكن عقد المجالس العلمية:

لم تكن هناك أماكن معينة لانعقاد هذه المجالس خاصة قبل انتشار البيمارستانات حيث كانت تعقد في المنازل والقصور وأكثرها في المساجد، حيث كانت تعقد حلقات الدرس حول أعمدة المساجد، في زمن كانت المساجد تمثل مراكز النشاط الديني والعلمي. وحتى بعد انتشار البيمارستانات كانت مجالسُ العلم للتدريس النظري للطب كثيراً ما تعقد في المساجد. فهذا موفق الدين البغدادي يزودنا بجدوله اليومي في العمل:

"وكانت سيرتي في هذه المدة: أنّني أقرئ الناس بالجامع الأزهر من أول النهار إلى نحو الساعة الرابعة، وسط النهار يأتي من يقرأ الطب وغيره وآخر النهار أرجع إلى الجامع الأزهر فيقرأ قوم آخرون، وفي الليل أشتغل مع نفسي"(٥٣).

وبعد انتشار البيمارستانات وتحولها إلى كليات لتخريج الأطباء، أصبحت معظم هذه المجالس تعقد في قاعة المحاضرات (الإيوان الكبير).

وابن أبي أصيبعة يزودنا بوصف لأحد هذه المجالس التي كانت تعقد في البيمارستانات وهو مجلس أبي المجد بن أبي الحكم:

"وكان بعد فراغه من ذلك (يقصد المرور اليومي على المرضى) وطلوعه إلى القلعة وافتقاده المرضى من أعيان الدولة يأتي ويجلس في الإيوان الكبير الذي للبيمارستان وجميعه مفروش، ويحضر كتب الاشتغال. وكان نور الدين رحمه الله قد وقف على هذا البيمارستان جملة كبيرة من الكتب الطبية وكانت في الخرستانين اللذين في صدر الإيوان فكان جماعة من الأطباء والمشتغلين يأتون إليه، ويقعدون بين يديه، ثم تجري مباحثات طبية ويقرئ التلاميذ، ولا يزال معهم في اشتغال ومباحثة، ونظر في الكتب مقدار ثلاث ساعات، ثم يركب إلى داره"(٥٤).

وعندما أُنشِئت المدارس الطبية في بعض الحواضر العربية مثل مدرسة الدخوار الطبية في دمشق كانت هذه المجالس تعقد فيها. يقول ابن أبي أصيبعة:

"ولما وقف شيخنا مهذب الدين عبد الرحيم بن علي(الدخوار) رحمه الله الدار التي له بدمشق، وجعلها مدرسة يدرس فيها صنعة الطب، وينتفع المسلمون بقراءتهم فيها أوصى أن يكون مدرسها شرف الدين بن الرحبي. لما قد تحققه من علمه وفهمه، فتولى التدريس بها مدة "(٥٥).

بل كانت هذه المجالس تعقد في بعض الأحيان في معسكرات الجيش، مرة أخرى يأتي طبيبنا العظيم "ابن أبي أصيبعة " الذي حفظ لنا تاريخنا الطبي ويخبرنا كيف كان يتلقى العلم من أستاذه "الدخوار" في معسكرات الجيش:

"وأما أولا فكنت أشتغل عليه (يقصد مهذب الدين الدخوار) في المعسكر لما كان أبي والحكيم مهذب الدين (الدخوار) في خدمة السلطان الكبير فبقيت أتردد إليه مع الجماعة، وشرعت في قراءة كتب جالينوس"(٥٦).

نظام العمل في مجالس العلم والمنهج الدراسي:

عندما يقرر شخص ما دراسة علم الطب فإنه يبحث أولا عن أستاذ يقبله في مجلسه العلمي، وإذا رأى الأستاذ أن شروط المتعلم تنطبق عليه فإن الطالب ينضم إلى المجلس ويلازم معلمه في بعض الأحيان إلى التخرج، وفي أحيان أخرى قد ينتقل إلى أستاذ آخر كما حصل لعز الدين بن السويدي الذي لازم أكابر الحكماء وأخذ ما عندهم من الفوائد الطبية والأسرار الحكيمة مثل الشيخ الحكيم مهذب الدين عبد الرحيم بن علي وغيره(٥٧).

وكما حصل لأبي الفرج بن القف الذي لازم أولا "ابن أبي أصيبعة"، ثم قرأ على الحكيم نجم الدين بن المنفاخ وعلي موفق الدين يعقوب السامري وعلى الشيخ مؤيد الدين العرضي(٥٨).

وكان نظام العمل في المجلس يقوم على أن يأتي الطالب فيقرأ درسه على أستاذه ويفهمه إياه بقدر طاقته، ثم يتباحثون فيما جاء فيه، ويطلب المعلم من المتميزين من طلبته بإجراء الأبحاث في المواضيع التي تحتاج إلى بحث أو فيها إشكاليات فنية.

وقد تعرفنا سابقاً على مجلس الرازي العلمي، ولنرَ الآن مجلس الدخوار العلمي (القرن السابع الهجري) وكيف كان نظام العمل فيه:

"وكان الشيخ مهذب الدين الدخوار" رحمه الله إذا تفرغ من البيمارستان، وافتقد المرضى من أعيان الدولة وأكابرها وغيرهم يأتي إلى داره ثم يشرع في القراءة والدرس والمطالعة، ولا بد له مع ذلك نسخ فإذا فرغ منه أذن للجماعة فيدخلون إليه ويأتي قوم من الأطباء والمشتغلين. وكان يقرأ كل واحد منهم درسه، ويبحث معه فيه ويفهمه إياه بقدر طاقته، ويبحث في ذلك مع المتميزين منهم إن كان الموضع يحتاج إلى فضل بحث، أو فيه إشكال يحتاج إلى تحرير. وكان لا يقرئ أحدا إلا وبيده نسخة من ذلك الكتاب يقرؤه ذلك التلميذ، وينظر فيه ويقابل به، فإن كان في نسخة الذي يقرأ غلط أمره بإصلاحه. وكانت نسخ الشيخ مهذب الدين التي تقرأ عليه في غاية الصحة، وكان أكثرها بخطه، وكان أبدا لا يفارقه إلى جانبه مع ما يحتاج إليه من الكتب الطبية ومن كتب اللغة كتاب الصحاح للجوهري، والمجمل لابن فارس وكتاب النبات لابن حنيفة الدينوري. فكان إذا جاءت في الدرس كلمة لغة يحتاج إلى كشفها وتحقيقها نظرها في تلك الكتب "[٥٩].

المنهج:

الغرض من سنين الدراسة سواء النظري منها في مجالس العلم أو العملي والنظري في البيمارستانات هو الإعداد الجيد للطالب لكي يصبح طبيبا حاذقا وباحثا مستمرا في علم الطب. لهذا كان هناك حد أدنى من المعرفة في مجالات شتى على المعلم إعداد الطالب ليتحصل عليها وهي[٦٠]:

■ أن يعرف مبلغ فرق الطب واعتقاد كل فرقة منها:

وضع جالينوس كتاباً من مقالة واحدة، يصف فيه ما يقوله كل واحد من فرقة أصحاب التجربة وأصحاب القياس وأصحاب الحيل. وحجج كل فرقة لدعم فرقتها وحججها في الرد على الفرق الأخرى[٦١]. وكان هذا الكتاب أول ما يقرأه من أراد تعلم الطب. منذ عهد جالينوس إلى عهود متأخرة في الحضارة العربية الإسلامية.

■ أن يعلم ترتيب الاستقسات (الأركان، العناصر) وتركيب الأجسام الطبيعية واختلاف أمزجتها والأخلاط ومزاجاتها ومن ماذا تتولد والمنفعة من تولدها وأصنافها والأعضاء ومنافعها والأفعال الصادرة منها. (أي باختصار ما نطلق عليه اليوم علم الفسيولوجيا).

■ علم التشريح: أن يعلم خلقة الأعضاء وتشريحها وموقعها في الجسم وتشريح الأعصاب والأوردة والشرايين.

■ علم الأمراض: أن يكون بصيرا بهذا العلم؛ فيعلم الأمراض وأقسامها واختلاف أنواعها وأسبابها، ويتعرف على علامات الأمراض وأعراضها والأمراض التي يمكن أن تبرأ وتلك التي لا يمكن برؤها والبحارين (تطور المرض إلى الأفضل أو إلى الأسوأ) وأيامها ويكون ماهراً في تقدمة المعرفة.

■ أن يكون ملماً بطرق الاستدلال على المرض من المساءلة والنبض والبول.

■ أن يكون عارفاً بطرق القياس.

■ على معرفة بالأغذية وقواها.

■ على معرفة بالأدوية؛ المفرد منها والمركب، من أصل نباتي أو حيواني أو معدني، ومنافعها ومضارها وجميع أفعالها وما يتعلق بها وبتركيبها وما يحدث لها بعد التركيب من المزاج والقوى والتأثير في بدن الإنسان.

■ أن يكون على إلمام بتأثير البيئة على صحة ومرض الإنسان (أي ما يعرف اليوم بالجغرافيا الطبية[٦٣]؛ وهو أن يعرف اختلاف أمزجة البلدان والأهوية ويعرف ما يختص بكل موضع من حيوان ونبات وبحار وجبال وأنهار. وكيف أمزجة أهل كل موضع وأخلاقهم وعاداتهم وأهويتهم وأغذيتهم ومشاربهم وحرفهم وعلاقة أمراضهم بالفصول وبما يعالجون أمراضهم وهكذا.

■ أن يكون على إلمام واطلاع بعلم الحساب والهندسة والفلك والفيزياء والموسيقى. وهي العلوم الغير طبية المساندة.

الكتب المقررة:

في البدايات وقبل ظهور المراجع الطبية العربية الأصيلة التي تحدثنا عنها في الفصول السابقة؛ كان الاعتماد على كتب اليونانيين المعربة خاصة كتب أبقراط الأربعة وكتب جالينوس الستة عشر. وقد رتب الرهاوي كتب جالينوس على الترتيب الذي يجب أن تدرس حسبة، وإن قال إن البعض يرى تقديم بعض هذه الكتب على بعض. وهي حسب ترتيب الرهاوي[٦٤]:

١- كتاب الفرق، نقل حنين مقالة.

٢- كتاب الصناعة، نقل حنين مقالة.

٣- كتاب إلى طوثرن في النبض (كتاب النبض الصغير)، نقل حنين مقالة.

٤- كتاب إلى أغلوقن في التأني لشفاء الأمراض، نقل حنين مقالتان.

٥- كتاب الاسطقصات (الاستقسات)، نقل حنين مقالة.

٦- كتاب المزاج، نقل حنين ثلاث مقالات.

٧- كتاب القوى الطبيعية، نقل حنين ثلاث مقالات.

٨- كتاب التشريح (التشريح الصغير) (كتاب المقالات الخمس في التشريح)؛ نقل حنين.

٩- كتاب منافع الأعضاء.

١٠- كتاب البحران نقل حنين ثلاث مقالات.

١١- كتاب أيام البحران نقل حنين ثلاث مقالات.

١٢- كتاب النبض الكبير نقل حبيش ستة عشرة مقالة، أربعة أقسام، ونقل حنين مقالة واحدة.

١٣- كتاب الأدوية المفردة.

١٤- كتاب الأدوية المركبة.

١٥- كتاب حيلة البرء، نقل حبيش وأصلح حنين الست الأول.

١٦- كتاب البرهان، لم يقرره الرهاوي على طلبته المبتدئين، بل فقط على من أراد التبحر في العلم.

obeikandl.com

وهناك لوائح أخرى تناولت كتب جالينوس الستة عشر بترتيب مختلف عن ترتيب الرهاوي، مثلما فعل ابن النديم في فهرسه[٦٥]. وإذا قارنا اللائحتين ببعضهما فسنلاحظ: أن أربعة كتب أوردها الرهاوي وهي الكتاب التاسع في الترتيب والثالث عشر والرابع عشر والسادس عشر لم يوردها ابن النديم ضمن الستة عشر المقررة على الطلبة، وأورد بدلا منها:

■ كتاب العلل والأعراض؛ نقل حنين، ست مقالات وهو التاسع في ترتيب ابن النديم.

■ كتاب تعرف علل الأعضاء الباطنة، نقل حبيش ست مقالات وهو العاشر في ترتيب ابن النديم.

■ كتاب الحميات، نقل حنين مقالتان وترتيبه الثاني عشر في ترتيب ابن النديم.

■ كتاب تدبير الأصحاء، نقل حبيش ست مقالات وترتيبه الخامس عشر في ترتيب ابن النديم.

بعد ظهور وانتشار الكتب الطبية العربية الأصيلة مثل "الحاوي" و"المنصوري" للرازي "والقانون في الطب " لابن سينا والملكي لعلي بن عباس وغيرها من عشرات المراجع التي أصبحت هي الكتب المعتمدة في تدريس الطب، ليس في العالم الإسلامي فحسب بل قررت في كليات الطب في الغرب في العصور الوسطى المتأخرة ولعدة قرون.

ولنرجع إلى مجالس العلم العربية في عالمنا الإسلامي حيث -كما قلنا- إنّها اعتمدت الكتب العربية في تعليم الطب إلى جانب بعض الكتب اليونانية المعربة بالإضافات والشروحات العربية التي أضيفت إليها لتصحيح ما جاء فيها.

فهذا "ابن أبي أصيبعة" في القرن السابع الهجري الذي أصبح شخصية معروفة لدينا، يروي لنا ما قرره هو على أحد طلبته "أبي الفرج بن أبي القف" من كتب طبية درّسها له في بداية دراسته للطب:

"كان والد أبي الفرج هذا قد تبيّن فيه النجابة من صغره، كما تحققت في كبره... فقصد أبوه تعليمه الطب فسألني ذلك فلازمني حتى حفظ الكتب الأوَائل المتداول حفظها في صناعة الطب كمسائل حنين والفصول لأبقراط وتقدمة المعرفة له، وعرف شرح معانيها وفهم قواعد مبانيها. وقرأ عليّ بعد ذلك في العلاج من كتب أبي بكر محمد بن زكريا الرازي، ما عرف به أقسام الأسقام، وجسيم العلل في الأجسام، وتحقق معاجلة المعالجة ومعاناة المداواة. وعرّفته أصول ذلك وفصوله وفهمته غوامضه ومحصوله"(٦٦).

كما يخبرنا ابن أبي أصيبعة لماذا أطلق لقب "الكلي" على أحد الأطباء المشهورين؟ وهو شمس الدين محمد الكلي قائلا: "ونشأ الحكيم شمس الدين محمد بدمشق، وقرأ صناعة الطب على شيخنا الحكيم مهذب الدين عبد الرحيم ابن علي رحمه الله، ولازمه حق الملازمة، وأتقن عليه حفظ ما ينبغي أن يحفظ من الكتب الأوائل التي يحفظها المشتغلون في الطب. وبالغ الحكيم شمس الدين في ذلك حتى حفظ أيضا الكتاب الأول من القانون (يقصد القانون في الطب

لابن سينا)، وهو الكليات جميعها حفظاً متقناً لا مزيد عليه، واستقصى فيه معانيه، ولذلك قيل له الكلي" (٦٧).

وابن أبي أصيبعة يروي لنا عن أيام اشتغاله بدراسة الطب على الشيخ الحكيم "رضى الدين الرحبي"، أحد أشهر معلمي الطب في عصره؛ فلا يوجد طبيب في الشام في ذلك العصر إلا وَيكون قد قرأ على الرحبي أو قرأ على من قرأ عليه:

"وكنت في سنة اثنتين وثلاث وعشرين وستمئة قد قرأت عليه كتابا في الطب ولا سيما فيما يتعلق بالجزء العملي من كلام أبي بكر محمد بن زكريا الرازي وغيره انتفعت به"(٦٨).

التدريب العملي في البيمارستانات:

بعد انتشار البيمارستانات في العالم الإسلامي شرقا وغربا، أصبح التدريب العملي في البيمارستانات أحد المتطلبات الرئيسية في التحصيل العلمي بغرض ممارسة مهنة الطب. وقد مر معنا تقسيم ابن سينا لعلم الطب: إلى علم أصول الطب وهو القسم النظري، وعلم مباشرته وهو القسم العملي، ومن كون هذا علم؛ فمن البديهي أن يكون له قسم نظري يتم تعليمه مع أصول الطب (في السطور السابقة رأينا كيف أن ابن أبي أصيبعة درس كتابا في الطب على أستاذه يتعلق في الجزء العملي من كلام الرازي)، وقسم عملي فني لا يمكن تعلمه إلا بالنظر والمشاهدة والممارسة الفعلية، أي لا يمكن تعليمه إلا بجانب أسرة المرضى، وهذا ما ميز طب العرب عمّن سبقهم من الأمم.

قال الرازي: "ليس يكفي في أحكام صناعة الطب قراءة كتبها، بل يحتاج مع ذلك إلى مزاولة المرضى"(٦٩).

وقال أبو العلاء صاعد صاحب التشويق الطبي " ويكون كثير التدرب والعناية بمزاولة المرضى وخدمتهم، والدخول إلى البيمارستانات"(٧٠).

وقال في مكان آخر:" ويواظب على الدخول إلى البيمارستانات والخدمة فيها والتصفح لغرائب الأمراض التي يجدها... وإذا رأى شيئا من هذه الغرائب فليثبته في دستوره"(٧١).

يصف جرونباوم في كتابه "حضارة الإسلام" فترة التدريب في البيمارستانات وأهميتها لطالب الطب في تلك العصور: "إنه ينبغي له (أي طالب الطب) على الدوام أن يزور البيمارستانات ودور العلاج، وأن يوجه انتباها لا يفتر إلى أحوال من فيها وظروفهم، وهو في صحبة أعظم أساتذة الطب ذكاء، وأن يكثر من الاستفسار عن حالة المرض والأعراض الظاهرة عليهم ذاكرا ما قرأه عن تلك التغيرات، وعما تدل عليه من خير أو شر. فإن هو عقل ذلك بلغ رتبة عالية في هذه الصناعة "(٧٢).

ومن غير "ابن أبي أصيبعة " رحمه الله يمكن له أن يخبرنا بوصف بديع وتفصيل دقيق لتجاربه الشخصية في سني دراسته في دمشق والقاهرة، وتجارب زملائه وبعض أقاربه الذين درسوا الطب وتدربوا في البيمارستانات، وكيف كانوا يدأبون على مرافقة رئيس الأطباء في المرور اليومي على المرضى، وحرصهم على

التواجد عندما يعالج المعلم المرضى في عيادته ويصف لهم الدواء، وتنافسهم على التواجد في المجالس الاستشارية لكبار الأطباء في البيمارستان عندما يجتمعون ويتحاورون.

ومن هذه الكتابات يمكن التعرف على ما كان مطلوبا من الطالب أثناء فترة تدريبه في البيمارستان أي "نظام التدريب في البيمارستان لطلبة الطب " الذي نستطيع أن نلخصه على الوجه التالي:

■ لا يستطيع الطالب الالتحاق بالبيمارستان للتدريب إلا بعد إنهاء مرحلة معينة من الدراسة النظرية، وهي إنهاء تحصيل الكتب الأولية في الطب كمسائل حنين والفصول لأبقراط وتقدمة المعرفة(٧٣).

وصف ابن أبي أصيبعة فترة تدرّب عمه رشيد الدين بن علي بن خليفة في البيمارستان: " وشرع في تعلم صناعة الطب والنظر فيه، لازم جمال الدين بن أبي الحوافر. وكان في ذلك الوقت رئيس الأطباء بالديار المصرية...، وقرأ عليه شيئا من كتب جالينوس الستة عشر، وحفظ منها الكتب الأولة في أسرع وقت. ثم باحث الأطباء ولازم مشاهدة المرضى بالبيمارستان، ومعرفة أمراضهم، وما يصف الأطباء لهم، وكان فيهم جماعة من أعيان الأطباء"(٧٤).

■ على الطالب أثناء فترة تدريبه في البيمارستان الاشتراك في المرور اليومي لمعلمه على المرضى المنومين، وخلال هذا المرور عليه أن يكون يقظا، متتبعا لجميع أفعال معلمه، كاتبا للملاحظات التي يجدها ضرورية له.

وصف لنا ابن أبي أصيبعة مروره اليومي بصحبة معلمه الدخوار على المرضى المنومين، وسنورد هنا هذا النص كاملا وإن كنا قد أوردنا جزءاً منه من قبل، لأهميته حيث يبين لنا أمانة النقل ودقة الوصف لما يعايشه الطالب أثناء فترة تدريبه، ودقة الشرح من قبل المعلم ومقدار علمهم، كما أن هذا النص يشرح بوضوح نظام المرور اليومي على المرضى في ذلك العصر والذي لا يختلف كثيرا عن نظام المرور اليومي في أي مستشفى جامعي حديث في الغرب، أو في الشرق الذي أعتقد أنه استورد هذا النظام من الغرب ونسى أنه هو الذي صدّره إلى الغرب منذ عهد بعيد، ثم أعاد استيراده ناسيا مصدره، فرحا به، معجبا بالغرب شاكرا لهم عبقريتهم، عاقا للعرب الذين ابتدعوه ناسيا فضلهم منكرا عبقريتهم:

"ومن ذلك أنني رأيته (يقصد معلمه الدخوار) يوما وقد أتى محموم بحمى محرقة وقواريره (بوله) في غاية الحدة. فاعتبر قوته، ثم أمر بأن يترك له في قدح بزور من الكافور مقدارا صالحا عينه لهم في الدستور (الملف الطبي وبروتوكول العلاج)، وأن يشربه ولا يتناول شيأ غيره، فلما أتينا من الغد وجدنا ذلك المريض والحمى انحطت عنه، وقارورته ليس فيها شيء من الحدة. ومثل هذا أيضا أنه وصف في قاعة الممرورين (عنبر الأمراض النفسية والعقلية) لمن به المرض المسمى مانيا، وهو الجنون السبعي، أن يضاف إلى ماء الشعير في وقت اسقائه إياه مقدار متوفر من الأفيون، فصلح ذلك الرجل وزال ما به من تلك الحال ورأيته يوما في قاعة المحمومين (أي الذين يشكون من الحمى وبلغة العصر عنبر الحميات والأمراض المعدية) وقد وقفنا عند مريض، وجست الأطباء نبضه

فقالوا: عنده ضعف ليعطى مرقة الفروج للتقوية فنظر إليه، وقال إن كلامه، ونظر عينيه يقتضي الضعف، ثم جس نبض يده اليمنى وجس الأخرى وقال: جسوا نبض يده اليسرى فوجدناه قويا. فقال: انظروا نبض يده اليمنى وكيف هو من قريب كوعه قد انفرق العرق الضارب شعبتين، فواحدة بقيت؛ التي تجس، والأخرى طلعت في أعلى الزند وامتدت إلى ناحية الأصابع فوجدناه حقا. ثم قال: إنّ من الناس -وهو نادر- من يكون النبض فيه هكذا، ويشتبه على كثير من الأطباء ويعتقدون أن النبض ضعيف، وإنما يكون جسهم لتلك الشعبة التي هي نصف العرق فيعتقدون أن النبض ضعيف "[٧٥].

■ على الطالب خلال فترة تدريبه في البيمارستان ملازمة أحد الأطباء المعلمين أثناء كشفه ومعالجته للمرضى في العيادات.

يقول ابن أبي أصيبعة: "فكنت بعد ما يفرغ الحكيم مهذب الدين والحكيم عمران من معالجة المرضى المقيمين بالبيمارستان، وأنا معهما، أجلس مع الشيخ رضى الدين الرحبي فأعاين كيفية استدلاله على الأمراض، وجملة ما يصفه للمرضى وما يكتب لهم، وأبحث معه في كثير من الأمراض ومداواتها"[٧٦].

■ على الطالب أثناء فترة تدريبه في البيمارستان مواصلة التحصيل النظري لدى أستاذه في مجلسه العلمي، سواء انعقد في البيمارستان أو في المسجد أو في المنزل. من قصة المرحلة الدراسية لابن أبي أصيبعة وغيره من الأطباء الذين أوردهم في كتابه نجد أمثلة كثيرة على ذلك[٧٧].

■ على الطالب أثناء فترة تدريبه في البيمارستان حضور جميع الاجتماعات العلمية التي تعقد والتي يحضرها كبار الأطباء العاملين في المستشفى ليتدارسوا ويناقشوا الحالات المرضية المستعصية، وغيرها من المواضيع الطبية.

■ بعد انقضاء فترة من تدريب الطالب في البيمارستان عليه أن يبدأ في الكشف على المرضى، والتعرف على أمراضهم تحت إشراف مدرسيه الذين يعملون تحت إشراف من هم أكثر خبرة منهم والكل تحت إشراف رئيس الأطباء. لقد مر معنا في الحديث عن المجلس العلمي للرازي: كيف أن الحلقة الثالثة والأخيرة تضم المبتدئين، وأنه إذا دخل مريض على المجلس، كان على أحد أفراد هذه الحلقة أن يقوم بالكشف عليه ومساعدته وإلا جاء من هو أكثر خبرة منه وهكذا إلى أن يصل المريض إلى رئيس الأطباء. وهذا لا يختلف كثيرا عما يتم في أيامنا هذه في المستشفيات التعليمية.

سنوات الدراسة لهذه المرحلة:

ليست هناك سنوات محددة للدراسة. فعندما يجد المعلم أن تلميذه قد استوفى تحصيل المتطلبات المعرفية النظري منها والعملي اللازمة للشخص لكي يمارس مهنة الطب؛ يسمح له بتقديم الاختبار (امتحان الطب) أمام رئيس الأطباء. ومدة الدراسة تختلف من شخص إلى آخر حسب استعداده العقلي والنفسي وجلده على التحصيل وارتباطه بدراسات أخرى.

وهذا النظام الذي يقوم على الالتزام بمنهج معين للمعرفة يتمثل في مواد دراسية محددة في تنظيم خاص متتالٍ على الطالب أن يحصّلها خلال مشوار دراسته، ولا التزام بسنوات محددة للدراسة؛ لا يزال معمولا به في كثير من كليات الطب الأوروبية في عصرنا الحديث.

obeikandl.com

التعليم الطبي المستمر والتفقه في علم الطب

بعد إنهاء الطالب تحصيله العلمي للحصول على الحد المقرر من المعرفة والخبرة الطبية اللازمة للبدء بممارسة المهنة؛ يسمح له معلمه بتقديم الامتحان أمام رئيس الأطباء (وقد أفردنا فصلا كاملا عن نظام الامتحانات). وإذا اجتاز الطالب هذا الامتحان؛ يقسم القسم أمام المحتسب ويحصل على تصريح العمل منه.

هنا يتبادر للذهن سؤال: هل عند هذا الحد تنتهي علاقة الطبيب بالعلم والتعلم؟ لقد أدرك الأجداد في تلك العصور ما نسيه الأبناء في العصور اللاحقة، وما أدركه الغرباء في العصور الحديثة: أن الطب من العلوم المتطورة والطويلة المتشعبة وقد يقصر العمر ولا يبلغ الإنسان الكمال فيه، لذا كان على الطبيب أن يكون على اتصال دائم ومستمر بالعلم والتعلم، سواء كان من الكتب أو من مجالس العلم وما يدور فيها من مناقشات ومحاورات علمية، أو من العمل في البيمارستانات بين وقت وآخر للإطلاع على الأمراض خاصة الغريب والنادر منها، والتعرف على طرق العلاج لكبار الأطباء السريريين.

يقول الطبيب والفيلسوف العربي الكبير "الكندي: "إن العاقل يظن أن فوق علمه علما، فهو أبدا يتواضع لتلك الزيادة، والجاهل يظن أنه قد تناهى فتمقته النفوس لذلك"(٧٩).

ويقول معاصر صلاح الدين الأيوبي وأحد أطبائه الطبيب موفق الدين البغدادي: " ولا تظن أنك إذا حصلت علما فقد اكتفيت بل تحتاج إلى مراعاته لينمو ولا ينقص. ومراعاته تكون بالذاكرة والتفكر واشتغال المبتدئ بالتلفظ والتعلم، ومباحثة الأقران. واشتغال العالم بالتعليم والتصنيف"[٨٠].

إذا حللنا ما قاله البغدادي وأيضا من كتابات لعلماء آخرين نجد أنهم قسموا طلب العلم بعد التخرج واكتساب الصنعة وممارستها إلى قسمين:

■ طلب العلم بقصد الاطلاع الدائم والمستمر على المستجدات الحديثة في عالم الطب وجمع الخبرات والمهارات الجديدة أو التي كانت تنقصه أصلا، أي ما نطلق عليه هذه الأيام التعليم الطبي المستمر.

■ طلب العلم بغرض التبحر والتفقه فيه ليكون طالبه باحثا عالما أستاذا يعلّم العلم.

ولنتعرف الآن على هذين القسمين من طلب العلم، وكيف نظمها علماء الحضارة العربية الإسلامية:

أولاً- التعليم الطبي المستمر:

لقد قلنا إنه كان على الطبيب المتخرج أن يسعى طوال حياته المهنية إلى تنمية علمه بالمعرفة والخبرات والمهارات الجديدة، فهو ينتمي إلى إحدى أشرف المهن، وموضوعه صحة الإنسان ومرضه وحدوده الحياة والموت يقول الرازي:

"الأطباء الأميون والمقلدون، والأحداث الذين لا تجربة لهم، ومن قلت عنايته وكثرت شهواته قتالون"(٨١).

■ وكان التعليم المستمر يتم من:

١- قراءة الكتب والاطلاع على القديم منها والحديث. وعلى الطبيب أن يكون شديد الحرص على جمعها واقتنائها وإذا ملكها عليه أن يواظب على قراءتها وفهمها أي أن يكون حرصه بقراءتها أشد من حرصه بتملكها، فإنما الغرض في ملكة الكتب التفهم، وفي ادخار العلوم التعلم وإلا كان مالكها حمارا يحمل أسفارا(٨٢).

ويضع الرازي منهجية للقراءة حيث يقول: "فَأَكْثِرْ من جمع كتب الطب جهدك ثم اعمل لنفسك كتابا تذكر فيه كل علة، ما قصّر الكتاب الآخر وأغفله من كل نوع من العلل وحفظ الصحة والرتبة من تعريف أو سبب أو تقسيم أو علامة أو علاج أو استعداد أو إنذار أو احتراس فيكون ذلك كنزا عظيما وخزانة عامرة"(٨٣).

٢- حضور المجالس العلمية التي يعقدها كبار الأطباء لتلاميذهم وقد تحدثنا عنها عند الكتابة عن تعليم الطب، وبينا كيف كان يدرّس فيها الطب للطلبة قبل التخرج، وكيف كان يحضرها الأطباء المتخرجون الذين يلازمون أستاذهم للاستزادة من العلم.

٣- حضور الاجتماعات العلمية التي كانت تعقد بين كبار الأطباء. فهذا ابن أبي أصيبعة يحدثنا عن اجتماعات الدخوار والحكيم موفق الدين يعقوب:" وفي

أوقات كثيرة لما أقام (موفق الدين يعقوب) بدمشق يجتمع هو والشيخ مهذب الدين عبد الرحيم بن علي (الدخوار) في الموضع الذي يجلس فيه الأطباء عند دار السلطان ويتباحثان في أشياء من الطب "[٨٤].

وهذه الاجتماعات بين كبار الأطباء لو تتبعناها لوجدناها كثيرة على مر عصور الحضارة العربية الإسلامية. وقد أعطينا مثلا عن الدخوار من القرن السابع الهجري ولنعطِ مثلاً من عهد هارون الرشيد حين دعا هو ويحيى بن خالد أكبر أطباء ذلك الزمن للاجتماع في القصر لمحاورة بختيشوع بن جورجس، وهم: أبو قريش عيسى، وعبدالله الطيفوري، وداود بن سرابيون، وسرجس[٨٥].

وهذا الصاحب بن عباد صاحب مدينة الري بفارس يمرض فيرسل له عضد الدولة طبيبا وهو أبو عيسى بن جرجس ليعالجه. وبعد معالجته يعقد أمير الري اجتماعا للأطباء نستطيع أن نسميه مؤتمرا طبيا كان نجمه أبو عيسى هذا[٨٦].

وفي فترة الحج كانت تعقد المؤتمرات الطبية حيث يجتمع الأطباء للتعارف والمناقشة والمحاورة العلمية وتبادل المعلومات والخبرات، حيث كانت أحد أهم طرق التعليم الطبي المستمر.

٤- العمل في البيمارستانات: مر معنا أنه كان على طالب الطب أن يتدرب في البيمارستانات قبل تخرجه، ولم يكن يكتفي بذلك فقط حيث كان عليه بعد التخرج وممارسة المهنة (إن مارسها في العيادات الخاصة) الالتحاق من وقت إلى

آخر بالبيمارستان لمزيد من التدريب والتعرف على غرائب الأمراض، وحضور الاجتماعات الاستشارية التي تعقد فيها بين كبار الأطباء. والأمثلة كثيرة ولا تجد طبيبا مبرزا من ذلك العصر إلا عمل في عدة بيمارستانات. فهذا ابن أبي أصيبعة تدرب في عدة بيمارستانات في دمشق قبل تخرجه، وبعدها كطبيب في بيمارستانات دمشق والقاهرة. وعمه رشيد الدين علي بن خليفة الذي درس الطب في القاهرة وتدرب كطالب في بيمارستانها، وعندما رجع إلى دمشق أخذ يبحث مع الشيخ رضى الدين الرحبي في صناعة الطب وباشر المرضى في البيمارستان النوري حيث شرع في معالجتهم والتزيد في صناعة الطب(٨٧).

٥- السفر والترحال والتنقل في الديار بحثا عن العلوم طلبا لملاقاة ذوي الفضل(٨٨).

إذا اطلعنا على تراجم المبرزين من أطباء الحضارة العربية الإسلامية، نجد أنهم كانوا كثيري السفر والترحال بحثا عن العلم ومقابلة العلماء والعمل في كبرى البيمارستانات. هكذا كان الحارث بن كلدة في العصر الجاهلي وصدر الإسلام، وهكذا كان الرازي وابن سينا، وهذا أبو الصلت أمية بن أبي الصلت درس في الأندلس ثم تنقل بين تونس ومصر في العصر الفاطمي، ويؤلف كتابه الرسالة المصرية ذاكرا فيه ما رآه في ديار مصر من هيئتها وآثارها ومن اجتمع بهم فيها من الأطباء(٨٩). ومن الغرائب التي رآها في مصر قال: "إنّه كان بمصر منذ عهد قريب رجل ملازم للبيمارستان يُستدعى للمرضى كما تستدعى الأطباء، فيدخل على المريض، فيحكي له حكايات مضحكة، و خرافات مسلية، ويخرج له

وجوها مضحكة، وكان مع ذلك لطيفاً في إضحاكه وبه خبيرا وعليه قديرا. فإذا انشرح صدر المريض، وعادت إليه قوته تركه وانصرف... ... فليت أطباء عصرنا هذا بأسرهم قدروا على مثل هذا العلاج الذي لا مضرة فيه، ولا غائلة له، بل أمره على المريض هين ونفعه ظاهر بين، كيف لا وهو ينشط النفس ويبسط الحرارة الغريزية ويقوي القوة الطبيعية ويقوي البدن... "[٩٠].

لقد أطلنا في مثال أبي الصلت لنبين كيف كانوا يستفيدون من السفر والترحال في التعرف على الظواهر الجديدة عليهم، وكيف يحللونها لكي تكون دعوة للاستفادة منها.

وقصة حياة الحسن بن الهيثم وابن النفيس ورشيد الدين بن خليفة عم ابن أبي أصيبعة وابن أبي أصيبعة نفسه فيها كثير من السفر والترحال في سبيل العلم والبحث عن الحقيقة. كانوا في هذه الأسفار يتعرفون على أحوال البلدان الاجتماعية والبيئية الطبيعية والجغرافية، وتأثير كل هذا على صحة الأبدان ويتعرفون على التغيرات التي تطرأ على الأبدان بتغير البلدان، وتغير قوى الأدوية بتغير البلدان والفصول. يقول الرازي: "باختلاف عروش البلدان تختلف المزاجات والأخلاق والعادات وطباع الأدوية والأغذية، حتى يكون ما في الدرجة الثانية من الأدوية في الرابعة وما في الرابعة في الثانية"[٩١].

ثانياً- طلب العلم بغرض التبحر والتفقه (أي ما نطلق عليه اليوم "الدراسات العليا"):

أسماء الأطباء التي وصلت إلينا عن طريق مؤرخي الطب مثل "ابن أبي أصيبعة" وابن جلجل" "والقفطي" وغيرهم؛ هي أسماء المشاهير ومن برز في

الطب من علمائه الذين تبحروا وَتفقهوا في علم الطب، مثلاً إنّ عدد الأطباء الذين أوردهم "ابن أبي أصيبعة" في "عيون الأنباء في طبقات الأطباء" حوالي ثلاثمئة طبيب ممن برزوا في الطب إلى عصره (القرن السابع الهجري)، بينما نجد أن عدد الأطباء في بغداد وحدها في زمن محدد من بدايات القرن الرابع الهجري بلغ ثمانمئة ونيفاً وستين ممارساً، سوى من استُغنِيَ عن محنته باشتهاره بالتقدم في صناعته (أي علماء الصناعة) ومن كان في خدمة السلطان وهؤلاء كانوا من كبار العلماء والمتبحرين في العلم. ونستخلص من هذا أنه في تلك العصور كان هناك طبقتان أساسيّتان من الأطباء طبقة الأطباء الممارسين، وكانت هي الأكثرية الساحقة، وكانوا جيدي التدريب والتأهيل للقيام بعملهم، خاصة بعد أمر الخليفة المقتدر بإلزامهم بتقديم امتحان الطب قبل الممارسة. ورقابة رئيس الأطباء والمحتسب لأعمالهم. والطبقة الأخرى الأقل عدداً هي طبقة الأطباء العلماء الذين تبحروا في العلم وقادوا النهضة الطبية ونهضوا بتعليم الطب، طبقة الرازي وابن سينا وعلي بن عباس وابن النفيس وابن الهيثم وابن رشد والزهراوي وغيرهم. وهذا لا يختلف كثيرا عن عصرنا الحديث من وجود أكثرية من الأطباء الممارسين الذين يتولون المعالجة وتطبيق المكتشفات الحديثة في العلاج، وأقلية باحثة تتبحر في العلم وتبحث فيه عن مكتشفات جديدة لتطوير العلم وطرق التشخيص والعلاج.

يصف رشيد الدين علي بن خليفة عملية التحول من طالب علم إلى باحث في العلم قائلا:" اشتغل بكلام المشهورين الجامع أولا فإذا حصلت الصناعة فاشتغل بالكتب الجزئية من كلام كل قائل؛ عارياً عن محبة أو بغضة ثم زنه

بالقياس وامتحنْه إن أمكن بالتجربة، وحينئذ اقبل الصحيح، وإن أشكل فأشرك غيرك فيه، فإن لكل ذهن خاصيته بمعان دون معان "[٩٣].

وهذا أحمد بن الأشعث الذي نستطيع أن نطلق عليه لقب أستاذ الدراسات العليا بلغة عصرنا، يفرق بين طالب تعلم الطب (أي طالب المرحلة الجامعية)، وطالب العلم الذي تجاوز حد التعليم إلى حد التفقه (أي طالب التعليم العالي) ثم يصف لنا قدرات العالم الباحث حيث يقول:" قد سألني أحمد بن محمد البلدي أن أكتب هذا الكتاب، وقديما كان سألني محمد بن ثواب فتكلمت في هذا الكتاب بحسب طبقتهما وكتبته إليهما وبدأت به في شهر ربيع الأول سنة ثلاث وخمسين وثلاثمئة، وهما في طبقة من تجاوز تعلم الطب ودخلا في جملة من يتفقه فيما علم من هذه الصناعة ويفرع ويقيس ويستخرج، وإلى من في طبقتهما من تلامذتي ومن اهتم بكتبي، فإن من أراد قراءة كتابي هذا؛ وكان قد تجاوز حد التعليم إلى حد التفقه فهو الذي ينتفع به ويحظى بعلمه، ويقدر أن يستخرج منه ما هو فيه بالقوة مما لم أذكره، وأن يفرع على ما ذكرته ويشيد... ... ذوي القرائح الأفراد التي يمكنها تفهّم هذا وما فوقه بقوة النفس الناطقة فيهم. هؤلاء تسهل عليهم المشقة في العلم، ويقرب لديهم ما يطول على غيرهم"[٩٤].

هذا النص على قصره وبساطته وقدمه حيث إنّه كتب في القرن الرابع الهجري؛ يستطيع أنْ يمدنا بدون تأويل مصطنع بكثير من المعلومات عن فهمهم للبحث العلمي، وأهدافه وتنظيمهم له وصفات الباحث وقدراته.

ولنرجع للنص ونحاول تحليله:

فالكاتب هنا كتب كتابا عن الأدوية المفردة (ثلاث مقالات)، ويقول إنه كتبه فقط لمن تجاوز مرحلة التعليم ودخل في مرحلة التفقه، ويطلب من الباحث فيه أن يستعمل قواه وقدراته الذهنية ليتفهمه ويفهم ما جاء فيه لأنه إن فعل ذلك: استطاع التنبوء مما جاء فيه بما لم يجئ فيه "أن يستخرج منه ما هو فيه بالقوة مما لم أذكره". فالكاتب هنا زودنا بهدفين أساسيين للعلم والبحث العلمي ألا وهما الفهم والتنبوء.

يعتبر الفهم في مفهوم البحث العلمي الحديث هو الهدف الرئيسي للعلم والبحث العلمي، والمقصود فهم الظواهر المختلفة وتفسيرها من حيث صفاتها وخصائصها وأسباب حدوثها وكذلك فهم العلاقة بين ظاهرة ما وعلاقتها بالظواهر الأخرى التي أدت الى وقوعها.

التنبُّؤ يعتبر أيضا أحد الأهداف الرئيسية للعلم والبحث العلمي والمقصود هنا: أنه عن طريق ربط بعض الظواهر المعينة ذات العلاقة بعضها ببعض يمكن مِن الاستنتاج؛ أي التنبوء بظواهر جديدة غير معروفة.

وأيضا قوله: "وأن يفرع على ما ذكرته ويشيد": أحد أهداف البحث العلمي وأغراض الباحث هو الإسهام في إضافات جديدة إلى المعرفة العلمية أي أن يسهم في التراكمية التي هي أحد السمات الرئيسية للفكر العلمي والمعرفة العلمية. فعلى العالم الباحث أن ينظر في المعرفة المتراكمة ويُزيلُ مِنْها ما ثبتَ خطلُه بالحقائق التي توصّل إليها، ويثبت ما ثبت صلاحه ويضيف إليها ما توصل إليه من معرفة مثبتة.

بهذا وبما سبق أن كتبناه عن أدوات وعناصر البحث العلمي لدى العرب -وهي: ١- الملاحظة والوصف والمشاهدة. ٢- التجربة والاختبار- نكون قد توصلنا للتعرف على المنهج العلمي الذي اتبعوه في أبحاثهم ودراساتهم المتطورة.

obeikandl.com

هوامش الفصل الثالث من الباب الثاني

١- الغزالي: إحياء علوم الدين ٢١/١ نقلاً عن محمد علي البار: المسؤولية الطبية وأخلاقيات الطبيب ص ٦٦ هامش ١.

٢- موطأ مالك.

٣- أخرجه أبو داود.

٤- ابن قيم الجوزية: الطب النبوي ص ١٢٠.

٥- المصدر السابق نفسه ص ١٢١.

٦- ابن سينا: القانون في الطب ١٣/١.

٧- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣٤٢/٢.

٨- أبو العلاء صاعد: التشويق الطبي ص ٨٩.

٩- الرهاوي: أدب الطبيب ص ٢٦٩.

١٠- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مصدر سابق، ١٣٩/٢.

١١- المصدر السابق نفسه ١٢٤/٢.

١٢- المصدر السابق نفسه ١٦٧/٢ و١٦٩ و١٧٠.

١٣- المصدر السابق نفسه ٤/٣.

١٤- المصدر السابق نفسه ٣٤٣/٢.

١٥- أرجع إلى الهامش ٤٦ من الفصل السابق

١٦- عكاوي:الموجز في تاريخ الطب عند العرب ص ٢٨١

١٧- زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص ٣١٢.

١٨- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء مصدر سابق، ١٦٧/٣.

١٩- لمن يريد أن يطلع على رد ابن بطلان على ابن رضوان، يمكنه الرجوع إلى ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، المصدر السابق، ١٦٧/٢-١٦٩.

٢٠- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، المصدر السابق، ١٧٠/٣.

٢١- المصدر السابق نفسه ٣٩٠/٣.

obeikandl.com

٢٢- المصدر السابق نفسه ٣/٣٩٩.

٢٣- سبق أن أشرنا بأن هذا القول ليس بحديث شريف، بل هو قول للإمام الشافعي.

٢٤- القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا؛ ١١/٢٤٩-٢٥٢.

٢٥- داود الأنطاكي: تذكرة أولي الألباب ص ١٦.

٢٦- المصدر السابقالمكان نفسه.

٢٧- أبو العلاء صاعد: التشويق الطبي، مصدر سابق، ص ٦٥.

٢٨- الرهاوي: أدب الطبيب، مصدر سابق، ص ٤٠

٢٩- أبو العلاء صاعد: مصدر سابق ص ٦٥.

٣٠- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مصدر سابق، ٣/١٧٠.

٣١- الرهاوي: أدب الطبيب، مصدر سابق، ص ٢٦٠.

٣٢- أبو العلاء صاعد: التشويق الطبي، مصدر سابق، ص ٦٦.

٣٣- الرهاوي: أدب الطبيب، مصدر سابق، ص ٢٥٩.

٣٤- أبو العلاء صاعد، مصدر سابق، ص ٦٥.

٣٥- الرهاوي: مصدر سابق ص ٢٦٠.

٣٦- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مصدر سابق، ٣/١٧٠.

٣٧- أبو العلاء صاعد: التشويق الطبي، مصدر سابق، ص ٦٥.

٣٨- الرهاوي: أدب الطبيب، مصدر سابق، ٢٥٩.

٣٩- ابن أبي أصيبعة عيون الأنباء، مصدر سابق، ٣/١٧٠، وأيضاً الرهاوي: أدب الطبيب ص ٢٦٠.

٤٠- الرهاوي: أدب الطبيب ص ٢٨٧.

٤١- المصدر السابق نفسه ٢٣٨.

٤٢- المصدر السابق، المكان نفسه.

٤٣- المصدر السابق نفسه ٢٣٦.

٤٤- المصدر السابق نفسه ص ٢٣٧-٢٣٨.

٤٥- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مصدر سابق، ٢/٢٣٦.

٤٦- المصدر السابق نفسه ٣/١١٣.

٤٧- ابن سينا: القانون في الطب ١/١٦٧-١٦٨.

٤٨- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مصدر سابق، ٢/٣٥٠.

obeikandl.com

٤٩- الرهاوي: أدب الطبيب، مصدر سابق، ص ٢٤٣ وص ٢٥٥-٢٥٦.

٥٠- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مصدر سابق، ١٣٩/٢.

٥١- المصدر السابق نفسه ٢٧٠/٢.

٥٢- المصدر السابق نفسه ٣٤٥/٢.

٥٣- المصدر السابق نفسه ٣٣٩/٣.

٥٤- المصدر السابق نفسه ٢٥٦/٣-٢٥٧.

٥٥- المصدر السابق نفسه ٣٢١/٣.

٥٦- المصدر السابق نفسه ٣٩٥/٣.

٥٧- المصدر السابق نفسه ٤٣٤/٣.

٥٨- المصدر السابق نفسه ٤٤٥/٣.

٥٩- المصدر السابق نفسه ٣٩٧/٣.

٦٠- كثير من كبار أطباء تلك العصور وضعوا مناهج المتطلبات المعرفية، المطلوب من طالب الطب تحصيلها. ولقد اعتمدنا هنا على ما وضعه أبو العلاء صاعد في كتابه التشويق الطبي لحسن تنظيمها وسهولة لفظها. انظر التشويق الطبي ص ٦٠-٨٠.

٦١- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مصدر سابق، ١٣٧/١.

٦٢- عرف ابن سينا تقدمة المعرفة بالتالي: "تقدمة المعرفة هي أن نحكم من دلالات موجودة على أمر كائن يؤول إليه حال المريض من إقبال أو هلاك بسبب ما يعرف من القوة، وثباتها أو سقوطها ومعرفة وقته والوجه الذي يكون مثلا هل يكون أو لا يكون". القانون في الطب ١٨٤٩/٢.

٦٣- أبو العلاء صاعد: التشويق الطبي، مصدر سابق، تحقيق مريزن سعيد مريزن ص ٧٨ هامش ٥.

٦٤- الرهاوي: أدب الطبيب، مصدر سابق، ص ٢٥٦-٢٥٩.

٦٥- ابن النديم: الفهرست ص ٣٥١.

٦٦- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مصدر سابق، ٤٤٤/٣-٤٤٥.

٦٧- المصدر السابق نفسه ٤٣٠/٣.

٦٨- المصدر السابق نفسه ٣١٩/٣.

٦٩- الرازي: الحاوي ٣٠٠/٢٣ نقلاً عن أبي العلاء صاعد: التشويق الطبي، تحقيق مريزن سعيد مريزن ص ٨٥ هامش ١.

obeikandl.com

٧٠- أبو العلاء صاعد: التشويق الطبي، مصدر سابق، ص ٦٦.

٧١- المصدر السابق نفسه ص ٨٥.

٧٢- جرونباوم: حضارة الإسلام ص ٤٢٤ نقلاً عن ماهر عبد القادر: دراسات وشخصيات ص ٢٩٧.

٧٣- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مصدر سابق، ٤٤٥/٣.

٧٤- المصدر السابق نفسه ٤٠٣/٣.

٧٥- المصدر السابق نفسه ٣٩٦/٣.

٧٦- المصدر السابق نفسه ٣٩٦/٣-٣٩٧.

٧٧- المصدر السابق نفسه ج٣ صفحات ٢٥٧ و٣٥١ و٣٩٧ و٤٠٣.

٧٨- المصدر السابق نفسه ج٣ الصفحات ٢٥٧ و٣٥٣ و٣٩٧ و٤٠٣.

٧٩- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مصدر سابق، ١٨٢/٢.

٨٠- المصدر السابق نفسه ٣٤٢/٣.

٨١- المصدر السابق نفسه ٣٥١/٢.

٨٢- أبو العلاء صاعد: التشويق الطبي، مصدر سابق، ص ٧٧-٧٨.

٨٣- نقلاً عن حنيفة الخطيب: الطب عند العرب ص ٢٧٤.

٨٤- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مصدر سابق، ٣٥٣/٣.

٨٥- المصدر السابق نفسه ٤٣/٢.

٨٦- المصدر السابق نفسه ٧٤/٢.

٨٧- المصدر السابق نفسه ٤٠٤/٣.

٨٨- أبو العلاء صاعد: التشويق الطبي، مصدر سابق، ص ٧٧.

٨٩- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مصدر سابق، ٩٩/٣-١٠٠.

٩٠- عكاوي: الموجز في تاريخ الطب ص ٢٦١.

٩١- ابن أبي أصيبعة: مصدر سابق ٣٥١/٢.

٩٢- المصدر السابق نفسه ٢٠٤/٢.

٩٣- المصدر السابق نفسه ٤١٢/٣.

٩٤- المصدر السابق نفسه ٢٤٨/٢.

obeikandl.com

الفصل الرابع

تنظيم اختبارات الطب

محنة الطب:

قبل سنة تسع عشرة وثلاثمئة هجرية قام كثير من مدعي الطب غير المؤهلين بممارسة المهنة طمعا في المال، حيث كانت مهنة الطب من المهن التي تدر كثيرا من المال. وقد حذر كبار أطباء تلك العصور من هؤلاء المدعين، ودعوا إلى تدخل الدولة لتنظيم المهنة كما شرحنا ذلك سابقا. وفي هذه السنة المذكورة أعلاه تجاوب الخليفة المقتدر مع طلبات كبار الأطباء والحكماء وأعطى أمره لمحتسبه بوقف جميع الأطباء في بغداد وما حولها من العمل، وطلب من رئيس أطبائه اختبار جميع الموقوفين؛ وفقط من استطاع اجتياز الامتحان، استطاع العودة إلى العمل كطبيب. وبذلك خضعت مهنة الطب رسميا لسلطة الدولة وكان السبب المباشر لذلك وفاة أحد المواطنين على أيدي بعض هؤلاء الأطباء، أما السبب الفعلي فكان مطالبة كبار الأطباء بتدخل الدولة لمنع المدعين من ممارسة المهنة وتنظيمها. فمن غير المعقول أن يأمر الخليفة بوقف ثمانمئة ونيف وستين طبيباً، لمجرد حالة وفاة واحدة، إلا أن يكون قد اتخذها ذريعة لتنظيم الطب وإخضاعه لمراقبة الدولة عن طريق المحتسب، خاصة إذا علمنا أنه بعد هذا التاريخ أصبح امتحان الطب إلزاميا على كل من أراد ممارسة المهنة

في جميع أرجاء الدولة الإسلامية، وعلى مر عصور الحضارة العربية الإسلامية.

وامتحان الطب هذا الذي أمر به المقتدر، هو أول امتحان مهني فني ورسمي إلزامي عمم على الجميع تقريباً، وعقد أمام أعلى مرجعية علمية في الصنعة.

وهذا لا يمنع أن بعض اختبارات الطب قد عقدت قبل هذا التاريخ إلا أنها لم تلزم جميع من أراد ممارسة المهنة، وبعضها لم يعقد أمام أفراد متخصصين من المهنة.

فعندما مرض أبو جعفر المنصور أمر بجمع الأطباء وسألهم عن أمهر الأطباء في سائر المدن، فنصحوه بجورجيوس بن جبرائيل وكان يرأس بيمارستان جنديسابور، فأمر بإحضاره وعندما وصل اختبره إذ: "أجلسه قدامه وسأله عن أشياء فأجابه بسكون. فقال له: قد ظفرت منك بما كنت أحبه وأشتاقه"[1].

وعندما مرض هارون الرشيد أمر بإحضار بختيشوع بن جورجس من جنديسابور، وطلب من يحيى بن خالد البر مكي أن يختبره وقال له أنت منطقي، فاعتذر يحيى بن خالد وطلب أن يقوم الأطباء بذلك، فدعا بهم وهم: أبو قريش عيسى، وعبدالله الطيفوري، وداود بن سرابيون وسرجس، وعندما رأوا بختيشوع لم يجرؤوا على سؤاله وقالوا: ليس في الجماعة من يقدر على الكلام مع هذا، لأنه كون الكلام هو وأبوه، وجنسه فلاسفة. فطلب الرشيد إحضار بول دابة لاختبار بختيشوع، وعندما رأى بختيشوع البول في القارورة قال: ليس هذا ببول

إنسان. فرد عليه أبو قريش: كذبت هذا ماء حظية الخليفة. فقال بختيشوع: لك أقول أيها الشيخ الكريم لم يبل هنا إنسان البتة! وإن كان الأمر على ما قلت فلعلها صارت بهيمة. وعندها سأله الخليفة: كيف عرفت ذلك؟ فأجابه: من القوام واللون والرائحة فكلها ليست لبول إنسان. ثم سأله الخليفة: بين يدي من قرأت؟ فأجابه أنه قرأ الطب على أبيه جورجس بن جبرائيل[٢].

هذان المثالان ضربناهما لنبين أنه كانت هناك امتحانات تعقد للأطباء قبل أمر الخليفة المقتدر، وإن لم تكن إلزامية على الجميع، ولم تكن منظمة ومنتظمة.

لقد اهتم الأطباء العرب بامتحانات الطب قبل وبعد أمر المقتدر. فلا نجد طبيباً من كبارهم إلا وله كتاب أو باب أو فصل في كتاب أو مقالة في امتحان الأطباء ومحنة الطبيب؛ هكذا فعل حنين بن إسحاق وثابت بن قرة، ويوحنا بن ماسويه وأبو سعيد اليمامي، وأبو الخير الحسن بن سوار والرازي، والرهاوي، وأبو العلاء صاعد بن حسن، وأسعد الدين بن أبي الحسن وغيرهم.

نظام الامتحان

مما كتب ووصل إلينا نستطيع أن نتصور ونحن في عصرنا هذا كيف كان هذا الامتحان يعقد في تلك العصور، ونتعرف على أهم سماته وتنظيماته ومضمونه. وسنتحدث هنا عن امتحان الطب للطبيب الطبائعي (ما نطلق عليه في أيامنا هذه الطب الباطني العام):

سمات الامتحان:

١- إنه كان شفهياً.

٢- لم يكن سرياً أي أنه لم يكن يعقد في غرفة مغلقة على الممتحِن والممتحَن؛ بل كان علنياً، فبالإضافة إليهما كان يحضره جميع الذين سيُمتَحنون ذلك اليوم. وقد يحضره أطباء آخرون، وهذا ما زال متبعا في بعض الجامعات الأوروبية العريقة إلى يومنا هذا.

٣- والامتحان وإن كان يحضره جميع الممتحَنين فلم يكن جماعياً؛ بل يُختَبَرون شخصاً شخصاً بالترتيب.

٤- الامتحان له جزء نظري وآخر عملي. وكان بعضُ الممتحِنين (الرازي) لا يسمح للطالب بدخول الامتحان العملي إذا رسب في النظري.

لمن يعقد امتحان الطب؟

١- إذا أنهى طالب علم الطب دراسته وأذن له شيخه بتقديم الامتحان؛ يتقدم بطلب إلى رئيس الأطباء الذي يحدد له موعدا لعقد الامتحان مع جمع من زملائه.

٢- قد يدعوا رئيس الأطباء المعين حديثا سائر الأطباء في منطقته ليرى ما عند كل واحد منهم في هذه الصناعة. كما فعل أمين الدولة بن التلميذ.

٣- قد يحول المحتسب بعض الأطباء إلى رئيسهم لاختبارهم إن رأى ذلك.

أسئلة الامتحان:

الجزء النظري:

كانت الأسئلة التي يوجهها الممتحِن إلى الممتحَن لا تتناول فقط الناحية العلمية للتعرف على مدى استيعابه للمنهج المقرر ومقدار تأهله للمهنة، بل تتناول أسرار حياته للتعرف على سلوكياته وشخصيته وهل هو مؤهل من جميع النواحي للانضمام إلى هذه المهنة الشريفة وممارستها؟ أي التعرف على ما اصطُلِحَ على تسميته في عصرنا الحديث بالسيرة الذاتية؛ لذا نجد أن الأسئلة تنقسم إلى:

١- أسئلة شخصية للتعرف على:

كيفية قضائه أوقاتَ فراغه: هل بمجالسة الأدباء والعلماء؟ أم بمصاحبة الجهال والسفهاء؟ هل بالقراءة والدراسة؟ أم متشاغل بالأكل والشرب ولعب الشطرنج؟

هل غرضه من دراسة الطب مساعدة الفقراء قبل الأغنياء؟ أم هل غرضه جمع المال والتجارة؟

كيفية تعهده لجسمه بالتغذية والنظافة والبعد عمّا يضر الصحة، لأنه لو أهمل في جسده فقد أنكر الطب وجهله وبذلك لا يصلح أن يكون طبيباً.

٢- أسئلة السيرة الدراسية:

وغرضها تعرف الممتحِن على السيرة الدراسية للمرشح لأن يكون طبيباً مثل:

على يد من درس الطب؟ وعلى الطالب ذكر شيخه (أو شيوخه إن كانوا عدة) ولا بد أن يكون (يكونوا) من المعلمين المعترف بهم.

ما هي المجالس العلمية التي التحق بها أو حضرها؟

ما هي الكتب الطبية التي اعتمد عليها في دراسته؟

في أي البيمارستانات تدرب؟

ما هي البلدان التي سافر إليها بغرض الدراسة؟

٣- أسئلة عن المنهج الدراسي النظري:

ومن خلالها يتعرف الممتحِن على مدى استيعاب الطالب للمادة العلمية النظرية أو ما أطلقوا عليه أصول الطب أثناء دراسته للمناهج والمراجع العلمية التي سبق ذكرها في الفصل السابق على يد أستاذه. وهنا يبدأ الممتحن بالأسئلة

obeikandl.com

العامة ثم يعرج إلى الأسئلة الرئيسة عن نظرية الطب التي كانوا يؤمنون بها، أي يسأله عن الأركان (العناصر) والأمزجة والأخلاط والأعضاء والأرواح الطبيعية والأرواح الحيوانية، ثم يتطرق إلى الصحة والمرض وما بينهما وتعريف ذلك، ثم بالكلام الكلّي عن الأمراض ونشأتها وأسبابها وعلاماتها وأعراضها وطرق الاستدلال المختلفة. هكذا ينتقل الممتحِن من موضوع إلى موضوع ومن سؤال إلى سؤال، ومن كل سؤال رئيس تتفرع عدة أسئلة فرعية للتعرف على استيعاب الممتحَن للجزئيات بعد التأكد من استيعابه للعموميات. ولا يسمح له بالانتقال إلى المرحلة التالية من الاختبار؛ أي الجزء العملي؛ إلا بعد أن يقتنع الممتحِن بأن الشخص الذي أمامه لديه الحد الأدنى من العلم النظري اللازم لممارسة المهنة.

الجزء العملي:

بعد الانتهاء من الجزء النظري ينتقل الطالب إلى اختبار الجزء العملي حيث يتعرف الممتحِن عن مدى استيعاب الطالب لعلم مباشرة الطب. وفي هذا الاختبار قد يُعطى الطالب قارورة بها بول إنسان مريض ويطلب منه تفسرته أي الاستدلال من البول على ما يعانيه المريض. ولكن يحذّر صاحب التشويق الطبي من المبالغة في ذلك بغرض الإيقاع بالطالب، كأن يطلب منه أن يفرق بين ماء الرجل وبين ماء المرأة، أو يطلب منه أن يتعرف على ماء الحامل في كل وقت، أو أن يوضع له ماء عادي في القارورة أو بول بعض الحيوانات ويطلب منه التعرف عليه. فهذا غير ملزم له حسب رأي أبي العلاء صاعد وإن اختلف معه البعض في لزوم ذلك على الطالب[٤].

نماذج لبعض الأسئلة:

وسنستعرض هنا بعض الأمثلة عن هذه الأسئلة[٥] التي كانت تسأل في تلك الامتحانات لنتعرف كيف كانت امتحاناتهم تعقد في ذلك الوقت؟ ولنرى كيف أن بعض أسئلتهم كانت من العمق بحيث أن الجواب لا يقوم على سرد الطالب لما حفظه، بل إن بعض الأسئلة تحتاج إلى تفكير عميق ومن أجوبتها يستطيع الممتحن تقييم قدرات الطالب ومدى استيعابه للمادة العلمية:

فعلى من كنت قرأت هذه الصناعة؟

أخبرني أي شيء قرأته من الكتب الطبية؟

على رأي أي فرقة أنت من فرق الأطباء؟

المعنى الذي يقع عليه اسم الطبيعة إن كان واحدا؟ وإن كان جوابه أكثر من واحد، فكم هي؟ وما هي؟

كيف تُركب الأدوية المركبة؟ ولِمَ عُجنت بعض المركبات بمياه وبعضها بعسل؟

لِمَ عُملت بعض الحبوب كبارا وبعضها صغارا؟

لِمَ صار الإنسان يشيب من دون سائر الحيوان؟

هل التنفس فعل طبيعي أو إرادي؟

وانظر إلى هذا السؤال الدقيق الذي تقتضي الإجابة عليه أن يكون الطالب

عارفاً بعضلات العين الخارجية وتشريحها، مطلعاً على وظائفها وعلى علم وظائف الأعضاء، ضليعاً على الأقل بالتغذية العصبية لهذه العضلات والتنسيق بينها.

صيغة السؤال: ما السبب الذي صار لأجله لا يقدر الإنسان أن يحرك إحدى عينيه إلى جهة ما، والأخرى ساكنة أو متحركة في جهة أخرى دون أن يتحرك معها في الجهة التي هي متحركة فيها حتى كأن بينهما اتصالاً والتحاماً، وليس العصب الذي يحركهما واحداً لكنه زوج، وسائر الأعضاء المزدوجة قد يقدر الإنسان أن يحرك الواحد منها دون الآخر، أو يحرك الاثنين في جهتين مختلفتين؟

وانظر إلى هذا السؤال:

كيف صار التثاؤب يعرض كثيراً لمن يسهر فكلما طال زمان سهره تواتر تثاؤبه إلى أن ينام ثم لا يعرض له ذلك؟

وأطباء زماننا هذا يستطيعون الإجابة على هذا السؤال بمكتشفات العلم الحديث؛ ولكن كيف كان جوابهم هم عليه؟ لا ندري! ولكن صيغة السؤال تدل على ذكاء وقوة ملاحظة. فربما كانوا يعلمون أكثر مما نعتقد نحن أنهم علموا!

لم صار الفم يتسع عند الضحك ويضيق عند البكاء؟

الإجابة هنا تقتضي أن يكون الطالب عالما بتشريح عضلات الوجه ووظائفها.

كيف يعرض الضحك من الدغدغة وما الموجب له؟

هل حمى يوم من الأمراض الحادة أم من الأمراض المزمنة؟

ما الفرق بين أعراض الكلى وبين أعراض وجع القولون؟

ما الفرق بين ذات الجنب وبين ورم الكبد وعلامتهما؟

ما الفرق بين أعراض القولنج وبين أعراض الحصاة المتولدة في الكلى والمثانة؟

ما الدواء الذي يفعل في الميت ضد ما يفعل في الحي؟ أعني أنه يعفن بدن الحي ويحفظ جثة الميت؟

متى يعد ابتداء المرض من اليوم الأول؟ ومتى يعد من الثاني أو من الثالث؟ ولم ذلك؟

كيف يقال في حمى يوم واحد إنها أبدا تحدث عن سبب من الأسباب البادية؟ ونحن نجد الحمى الحادثة بسبب الورم الحادث في اللحم الرخو الذي في الغالب إنما تحدث بسبب من داخل.

بعد اجتياز الطالب هذا الامتحان بنجاح يحصل من رئيس الأطباء على شهادة يبين فيها: أن الطالب قد استوفى تحصيل المتطلبات العلمية النظرية والعملية اللازمة لممارسة الصنعة في مجال معين منها وهو الذي أُختُبِر فيه، بعد ذلك يقسم قسم أبقراط أمام المحتسب ومن ثمَّ يستطيع الحصول على تصريح العمل بممارسة المهنة.

وفي العصور اللاحقة أصبح على الطالب الذي يريد إجازته في فن من فنون الطب؛ أن يتقدم برسالة (نستطيع أن نقارنها بما نسميها اليوم أطروحة) إلى رئيس الأطباء تكون من إبداعه أو لأحد المشاهير يكون قد أجاد دراستها، ويمتحن على ضوئها لمعرفة مدى استيعابه لها. وبعدها يجاز أو لا يجاز لممارسة الصنعة[٦].

obeikandl.com

هوامش الفصل الرابع من الباب الثاني

١- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢/٣٧-٣٨.

٢- المصدر السابق نفسه ٢/٤٢.

٣- المصدر السابق نفسه ٢/٢٧١-٢٧٢، والرهاوي: أدب الطبيب ص ٢٤٢-٢٦٠، وأيضاً أبوالعلاء صاعد: التشويق الطبي ص ١٠٥-١١١.

٤- أبو العلاء صاعد: التشويق الطبي ص ١١١.

٥- تم نقل هذه الأسئلة من عيون الأنباء وأدب الطبيب والتشويق الطبي ارجع إلى الهامش ٣.

٦- أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص ٤٣.

obeikandl.com

الفصل الخامس

تنظيم التخصص الطبي

تنظيم فروع الطب الأخرى

منذ أن عرف العالم الطب والتطبب كان هناك من يمارس عموم الطب (الطب الباطني العام) ومن يزاول مهنة الطب في فرع من فروعه. يذكر هيرودوت عندما يتحدث عن الطب في مصر القديمة:

"وفن الطب موزع بينهم توزيعاً مبنياً على الحكمة، حتى أن كل طبيب كان يتعاطى فرعاً واحداً من فروع الطب لا أكثر، والأطباء هناك كثيرون جداً، فمنهم للعيون ومنهم للرأس ومنهم للأسنان ومنهم لأمراض البطن وما يجاوره من الأعضاء ومنهم للأمراض الداخلية"(١).

وأطباء الإغريق عندما نظروا إلى الطب والعلاج نظرتهم التأملية الفلسفية وصنفوا فيه مصنفاتهم كانوا يقصدون به الطب الباطني العام. وقسم (عهد) أبقراط الذي يقسمه الأطباء كان يقصد به أطباء الطب الباطني العام. وسنأتي للقسم في حينه ولكن لنقتطف هذه الفقرة من القسم:

"ولا أشق أيضاً عمن في مثانته حجارة، ولكن أترك ذلك إلى من كانت حرفته هذا العمل"(٢).

معنى هذا أن هناك آخرون يحترفون فروعاً أخرى في الطب أو ما يعرف "بالطب اليدوي".

وخلال أطوار الحضارة العربية الإسلامية المختلفة كان لديهم الطبيب الطبائعي: من يمارس الطب بوصفه وقوله أي من يمارس الطب حسب مدرسة الطب الباطني العام.

وإلى جانبه نجد من يمارس الطب بيديه وهم:

الكحال (طبيب العيون)، الجرائحي (الجراح)، إضافة إلى الخاتن والفاصد الحجام والمجبر والكواء والحاقن[٣].

أي هناك من الأطباء من يستعمل حواسه وعلمه وعقله في التشخيص والعلاج وهو الطبائعي الذي يطلق عليه اختصارا الطبيب، يقول ابن قيم الجوزية: " فاسم الطبيب يطلق لغة على هؤلاء كلهم، كما تقدم (يقصد من ذكرناهم بالأعلى) وتخصيص الناس له ببعض أنواع الأطباء عرف حادث، كتخصيص لفظ الدايه بما يخصها كل قوم"[٤] وهناك من يستعمل علمه ويديه في العلاج وهم اليدويون كالجراحين والكحالين والفصادين إلخ، وكان ينظر إليهم نظرة أقل ما فيها أنهم في مرتبة أدنى من الطبيب الطبائعي. وفي أغلب الأحيان ينظر إليهم نظرة احتقار وامتهان، فقرار"تورس البابوي" في أوروبا حرّم تدريس الجراحة في مدارس الطب، وأعلن أن الأطباء الذي يتعاطونه حقيرون غير شرفاء[٥]. وعلى هذا كان الأوروبيون يعتبرون الجراحة في مرتبة المهن الحقيرة الدنسة التي تكاد

تكون بمنزلة مهنة الجلادين والجزارين. إلى أن جاء العرب في عصرهم الذهبي في الطب وهو الطور الثالث من تطور الطب لديهم كما مر معنا، فرفعوا الطب الجراحي وطب الكحالة إلى مستوى الطب الطبائعي وتعاملوا معهما على مستوى علمي رفيع.

الجراحة:

تقول الألمانية زيجريد هونكة في كتابها " شمس العرب تسطع على الغرب" في حديثها عن الجراحة وفضل علماء الحضارة العربية الإسلامية:" فهذا الفرع بالذات (تقصد الجراحة) يدين للعرب بتقدّمه وصعوده المفاجئ من مرتبة المهن الحقيرة الدنسة التي تكاد تكون بمنزلة مهنة الجلادين والجزارين، إلى القمة التي عرفها على أيدي العرب"[٦].

وفي البدء كتبَ كبار الأطباء؛ إلى جانب كتاباتهم في الطب العام؛ كتابات في الجراحة والكحالة، مثل الرازي وابن سينا وعلي بن عباس وابن النفيس وغيرهم كثيرون.

فمثلاً وليس حصراً احتوى كتاب علي بن عباس المسمى الكتاب الملكي؛ وهو أول كتاب طبي عربي ترجم إلى اللاتينية[٧]؛ في الجزء الخاص عن الجراحة وصفاً لكثير من الحالات والعمليات الجراحية، فأعطانا وصفاً دقيقاً لفتح الحنجرة من الخارج، ولقسطرة المثانة، وكيفية إزالة الورم السرطاني ونصح بإزالته تماما حتى الوصول إلى الأنسجة السليمة.

بعد هؤلاء الأطباء الموسوعيين ظهر أطباء أعطوا جل اهتمامهم لعلم الجراحة كان أبرزهم الطبيب العربي الأندلسي المدني الأصل "أبو القاسم خلف ابن عباس الزهراوي" الذي يعتبره الكثيرون مؤسس طب الجراحة العلمية وواضع دعائمه وأسسه، التي عليها بنت أوروبا علم الجراحة الحديث.

فهو صاحب المؤلف الضخم:" التصريف لمن عجز عن التأليف" وفي جزئه الأخير كتب أراءه الجديدة في الجراحة. ووصف فيه العمليات الجراحية ومعالجة الجروح وإزالة الحصى، ووصف أدوات جراحية جديدة لم تكن معروفة من قبل. تقول زيجريد هونكة " وقد مثل القسم الثالث من هذا الكتاب دورا هاما في أوروبا إذ وضع أسس الجراحة الأوروبية وسما بهذا الفرع من الطب، الذي طالما نظر إليه أصحاب الأمر والشأن في البلاد الغربية نظرة احتقار وتسفيه إلى مقام رفيع، فأصبحت الجراحة مستقلة بذاتها ومعتمدة في أصولها على علم التشريح "[٨].

"المقالة الثلاثون"[٩] هي التي تمثل هذا الجزء الجراحي من السفر الضخم"التصريف لمن عجز عن التأليف".

ولو استعرضنا فقط بعض عناوين فصول المقالة التي جاءت في فهرسها لأدركنا هذا الكم الهائل من الحالات التي كان يمكن جراحتها، وأيضاً هذا التطور الكبير الذي وصل إليه أجدادنا في الجراحة:

والمقالة الثلاثون تقع في ثلاثة أبواب:

الباب الأول: في الكي وهو في ستة وخمسين فصلاً. بعض الأمثلة من هذا الباب:

الفصل الثالث: في كي شقيقة غير مزمنة

الفصل التاسع: في كي الفالج واسترخاء جميع العيون.

الفصل الثاني عشر: في كي الماء النازل من العين.

الفصل التاسع عشر: في كي الناسور الحادث في الفم.

الفصل الحادي والثلاثون: في كي الاستسقاء.

الفصل الخمسون: في كي السرطان.

الفصل السادس والخمسون: في كي النزف الحادث عند قطع الشريان.

الباب الثاني: في الشق والبط والفصد والجراحات ونحوها، وهو في مئة فصل. نذكر بعضها وليلاحظ القارئ العزيز مدى التقدم الذي وصلت إليه الجراحة على يد الأطباء العرب:

الفصل الأول: في علاج الماء الذي يجتمع في رؤوس الصبيان.

الفصل الرابع: في علاج سيلان الدموع الجارية الدائمة إلى العين.

الفصل الرابع والعشرون: في علاج اللحم النابت في الأنف.

obeikandl.com

الفصل الثلاثون: في قلع الأسنان.

الفصل الثالث والثلاثون: في تشبيك الأضراس المتحركة بخيوط الذهب والفضة.

الفصل السادس والثلاثون: في علاج ورم اللوزتين وما ينبت في الحلق من سائر الأورام.

الفصل الثالث والأربعون: في شق الحنجرة من خارج عن ورم يحدث في داخل الحلق.

الفصل السادس والأربعون: في صور الآلات التي تتصرف في الشق والبط.

الفصل التاسع والخمسون: كيف تحقن المثانة بالزراقة وصور الآلات التي تصلح لذلك.

الفصل الستون: في إخراج الحصاة.

الفصل السبعون: في علاج الخنثى.

الفصل الخامس والسبعون: في تعليم القوابل كيف يعالجن الأجنة الأحياء إذا خرجوا على غير الشكل الطبيعي.

الفصل السادس والسبعون: في إخراج الجنين الميت.

الفصل الثامن والسبعون: في إخراج المشيمة.

openkandil.com

الفصل الخامس والثمانون: في جراح البطن وجراح المعاء وخياطتها.

الفصل الثامن والثمانون: في قطع الأطراف ونشر العظم.

الفصل الثالث والتسعون: في الشق على الدود المتولد تحت الجلد ويسمى علة البقر.

الباب الثالث: في الجبر وهو في خمسة وثلاثين بابا:

الفصل السابع: في جبر الأنف إذا انكسر.

الفصل التاسع: في جبر خرز الظهر والعنق.

الفصل الخامس عشر: في جبر كسر فلكة الركبة.

الفصل الثامن عشر: في كسر فرج المرأة وعظم العانة وذكر الرجل.

الفصل التاسع عشر: في جبر كسر العظام إذا كانت مع جرح.

الفصل الحادي والعشرون: في علاج الكسر إذا انجبر وبقي العضو بعد ذلك رقيقاً على غير طبيعته الأولى.

الفصل الخامس والعشرون: في رد فك الترقوة وطرف المنكب.

الفصل الثلاثون: في علاج فك خرز الظهر.

الفصل الحادي والثلاثون: في علاج الورك المفكوك.

obeikandl.com

وقد استعمل الزهراوي كثيراً من الآلات التي ابتكر بعضها بنفسه مثل:

المكاوي بشتى أشكالها: النقطة، السكينية، الهلالية، المجوفة، ذات السفودين وذات الثلاثة سفافيد.

الصنانير بشتى أنواعها: عمياء، لطيفة، بسيطة، ذات المخطافين وذات الثلاثة مخاطيف.

والمباضع الشتى: المبضع الأملس، الحاد الطرفين، النشل والشوكي.

بالإضافة إلى الجفت، والملاقط، والمجارد، والكلاليب والمراود، والمسابر والمحاجم، والقثاطير والزراقات والمحاقن واللوالب وغيرها من عشرات الأجهزة[١٠].

وهو أول من استعمل الخيوط الحريرية في ربط الأوعية الدموية واستعمل شعر ذيل الحصان في خياطة الجروح.

ونستطيع أن نقول بدون أن نتجاوز الموضوعية: إنه إلى جانب اعتبار الزهراوي واضع أسس الجراحة الحديثة، يمكن اعتباره أنه واضع الأسس الأولى لطب النساء والولادة.

فهو قد أشار إلى المشيمة المتقدمة في الحمل، والحمل خارج الرحم، وعالج النواسير والثآليل والبثور الحمر في الجهاز التناسلي الأنثوي، وعالج خراج الرحم وإخراج الأجنة الميتة، وصور الآلات التي تستعمل في ذلك وكتب في تعليم القوابل

كيف يعالجن الأجنة الأحياء إذا خرجوا على غير الشكل الطبيعي، وكتب عن إخراج المشيمة[11]، بالإضافة إلى كل هذا له رسالة في أمراض النساء.

الكحالة أو طب العيون:

على منوال الجراحة تم تحول الكحالة على أيدي الأطباء العرب من حرفة يدوية ينظر إليها بازدراء إلى تخصص علمي طبي تفوقوا فيه على أساتذتهم اليونان. وكالعادة كانت هناك في البدء كتابات متفرقة عن طب الرمد في مؤلفات أطباء الحضارة العربية الإسلامية، ثم بدأت الكتابات المتخصصة في العين وعللها بمؤلفات حنين بن إسحاق، على الرغم من أنه لم يكن كحالاً. وهو قد صنف كتاب العشر مقالات في العين على النحو التالي:

المقالة الأولى: يذكر فيها طبيعة العين وتركيبها.

المقالة الثانية: يذكر فيها طبيعة الدماغ ومنافعه.

المقالة الثالثة: يذكر فيها العصب الباصر والروح الباصر وفي نفس الإبصار كيف يكون.

المقالة الرابعة: يذكر فيها جملة الأشياء التي لا بد منها في حفظ الصحة واختلافها.

المقالة الخامسة: يذكر فيها أسباب الأعراض الكائنة في العين.

المقالة السادسة: في علامات الأمراض التي تحدث في العين.

المقالة السابعة: يذكر فيها قوى جميع الأدوية عامة.

المقالة الثامنة: يذكر فيها أجناس الأدوية للعين خاصة وأنواعها.

المقالة التاسعة: يذكر فيها مداواة أمراض العين.

المقالة العاشرة: في الأدوية المركبة الموافقة لعلل العين.

ويقول ابن أبي أصيبعة: "ووجدت مقالة أخرى حادية عشرة لحنين مضافة إلى هذا الكتاب، يذكر فيها علاج الأمراض التي تعرض في العين بالحديد (يقصد عمليات العين الجراحية)".

وبعد حنين جاء ثلاثةٌ أطباء كان لهم الفضل الأكبر في تأسيس طب العيون على أسس طبية علمية:

أولهم: علي بن عيسى (وقيل عيسى بن علي) الكحال:

له تآليف كثيرة في طب العيون بلغت اثنين وثلاثين كتاباً كان أفضلها وأقدمها "تذكرة الكحالين" الذي اعتبر مرجعاً لكل من مارس مهنة الكحالة.

كتب ابن أبي أصيبعة يصف كتابه هذا: "وكتابه المشهور بتذكرة الكحالين هو الذي لا بد لكل من يعاني صناعة الكحل أن يحفظه، وقد اقتصر الناس عليه دون غيره من سائر الكتب التي قد ألفت في هذا الفن وصار ذلك مستمراً عندهم"[١٣].

وثانيهم: عمار بن علي الموصلي:

الذي لم يمارس أي فرع آخر في الطب غير الكحالة، وأوقف حياته العملية والعلمية لطب العيون ولم يؤلف إلا كتابا واحدا، فكان جامعا علمياً ومهنيا لكل ما يختص بطب العيون، وهو كتاب " المنتخب في علم العين": يتكون من واحد وعشرين فصلا، تناول فيه كل ما يخص العين: بدءاً من تشريحها إلى فسيولوجيتها إلى الأمراض التي تصيبها. وذكر واحداً وخمسين مرضاً من أمراض العين. وذكر مرض المياه البيضاء الذي يصيب العين (الكتاراكت) أي قطرات الماء، وطرق علاجه والوقاية منه وإزالته جراحياً بالعملية المعروفة بالقدح وحذر من القدح قبل نضج المرض.

وابتكر المقداح المجوف المصنوع من المعدن للاستعمال في هذه العمليات، وعرف عنه أنه كان يسجل تقريراً كاملاً عن العملية التي يقوم بها، وما يجري فيها من أحداث سواء عادية أو مضاعفات؛ كأي طبيب جراح عيون في العصر الحديث.

وثالثهم: الحسن بن الهيثم:

واكتشافاته في علم البصريات كثيرة، حيث قام بدراسات علمية دقيقة عن العين وطبقاتها وتشريحها ووظائفها، ودرس علم العدسات وعمل العين في الإبصار، وأثبت أن الإبصار يحدث نتيجة انعكاس الضوء على المرئيات وسقوطه في العين مخالفاً بذلك الأولين ومثبتاً بطلان ادعاء اليونان بأن الإبصار يحدث

نتيجة إشعاع يخرج من العين فيقع على الأجسام فتبصرها، مؤيداً بذلك ما ذهب إليه الرازي قبله عندما أخرج كتابه "في كيفية الإبصار يبين فيه أن الإبصار ليس يكون بشعاع يخرج من العين، وينقض فيه أشكالاً من كتاب إقليدس في المناظر"(١٤).

والحسن بن الهيثم هذا هو الذي اكتشف أن صورة الجسم المرئي تقع متماثلة على الشبكية، وتوصل بدراساته عن الضوء والعدسات والعين في كيفية إصلاح الرؤيا إذا فسدت العين، فكان أول من وصف " النظارات" للقراءة(١٥).

والحسن بن الهيثم هو من نستطيع أن نطلق عليه لقب "الباحث المتفرغ" فهو باحث ودارس في علوم شتى في الهندسة والرياضيات والضوء والبصريات والفلسفة والحكمة والطب، ولكنه لم يمارس الصنعة كطبيب يقول "ابن أبي أصيبعة " عنه: " وكان خبيراً بأصول صناعة الطب وقوانينها وأمورها الكلية، إلا أنه لم يباشر أعمالها، ولم تكن له دربة بالمداواة، وتصانيفه كثيرة الإفادة "(١٦).

وبعد هؤلاء ظهر كثير من الكحالين العظام الذين ارتفعوا بالكحالة ورفعوا بها. فابن أبي أصيبعة نفسه كان كحالاً كما كان أبوه وعمه.

من كل هذا يظهر لنا أن العرب إلى جانب تطويرهم علم الطب الطبائعي (الباطني العام) وتحويله إلى علم يقوم على التجربة والملاحظة؛ رفعوا فرعين للطب كانا منسيين محتقرين كمهن يدوية إلى تخصصين علميين من تخصصات الطب، ورفعوا ممتهنيهما إلى درجة الأطباء الطبائعيين ينالهم ما ينال هؤلاء من تشريف في انتمائهم لأحد أشرف المهن.

والرواية التالية التي رواها "ابن أبي أصيبعة" عن رئيس الأطباء جمال الدين ابن أبي الحوافر لها دلالة واضحة على احترامهم وتشريفهم لمهنة الطب سواء مارسها طبيب طبائعي أو جراح أو كحال:

"كان يوما راكباً (يقصد ابن أبي الحوافر) فرأى في بعض النواحي على مسطبة بياع حمص مسلوق، وهو قاعد وقدامه كحال يهودي، وهو واقف وبيده المكحلة والميل، وهو يكحل ذلك البياع فحين رآه على تلك الحال ساق بغلته نحوه وضربه بالمقرعة على رأسه، وشتمه. عندما مشى معه قال له: إذا كنت أنت سفلة في نفسك، أما للصناعة حرمة؟ كنت قعدت إلى جانبه وكحلته، ولا تبقى واقفاً بين يدي عامي بياع حمص؛ فتاب أن يعود يفعل مثل ذلك الفعل وانصرف"[١٧].

وإلى جانب ذلك أيضاً وضع العرب اللبنات الأولى لبعض التخصصات الطبية التي أصبحت تخصصات قائمة بذاتها في العصر الحديث:

تخصص جراحة العظام:

وضع العرب اللبنة الأولى في تحويل التجبير من مجرد مهنة يدوية إلى تخصص طبي، انظر الباب الثالث من كتاب الزهراوي "المقالة الثلاثون". وقد أدخل العرب طريقة جديدة لمعالجة خلع الكتف ما تزال تدعى بالطريقة العربية حتى اليوم[١٨] وبرعوا في معالجة تشوهات المفاصل والعظام وكسور الظهر والحوض، وجبر كسر العظام مع جرح وذلك بترك فتحة في رباط الجبيرة لمعالجة الجرح ولا تزال هذه الطريقة تستعمل إلى عصرنا الحالي في معالجة الكسر مع الجرح.

التخديـــر:

لقد وضع أطباء الحضارة العربية الإسلامية أيضا اللبنة الأساسية في هذا الفرع الطبي. وقد برعوا في استخدام المرقد(المخدر) في التخدير العام أثناء العمليات حيث كانوا يشبعون إسفنجة في محلول من الحشيش والأفيون والزؤان وست الحسن ثم تجفف في الشمس، وعند الاستعمال ترطب ثانية وتوضع على أنف المريض. ولنقرأ سوياً ما كتبته الكاتبة المنصفة زيجريد هونكة عند وصفها لعملية جراحية أجريت في أحد البيمارستانات في ذلك الوقت:

"فهناك طبيب يشرف على التخدير بواسطة الحشيش والأفيون والزؤان وست الحسن (هيوسامين)، وهناك طبيب آخر يراقب النبض، وأما الثالث فيقوم بالعملية ويعمد إلى الشق بعناية فائقة ويحرص الحرص كله على ألا يكون الجرح كبيراً أو عميقاً"[١٩].

الطب النفسي:

لقد برع أطباء الحضارة العربية الإسلامية في العلاج النفسي والروحي وبذلك وضعوا الأساسات الأولى لتخصصات الأمراض العقلية والنفسية، فقد كان من شروطهم للطبيب الحاذق قدرته على التخييل[٢٠]؛ أي قدرته على الإيحاء النفسي واستطاعوا معالجة كثير من الأمراض النفسية. وقصة الطبيب جبرائيل ابن بختيشوع مع جارية هارون الرشيد التي كانت مصابة بشلل في يديها معروفة، فقد عالجها بحيلة محاولة كشف عورتها برفع ذيل ملابسها فشفاها من

مما يعرف اليوم "بالشلل الهستيري". وهذه القصة مروية بالكامل في عيون الأنباء في طبقات الأطباء[٢١] لابن أبي أصيبعة أي منذ مئات السنين قبل فرويد الذي إليه ينسب فضل علاج أول حالة من هذا المرض.

وتعرفنا سابقاً كيف عالج الطبيب وحيد الزمان مريضاً بالوهم (العصاب القهري)، حيث كان يعتقد المريض أن على رأسه دنا وكان يخشى طوال الوقت من سقوط الدن وانكساره، واستطاع الطبيب بالإيحاء إيهام المريض بأن الدن قد انكسر وعالجه بذلك من هذا الوهم.

وعالج هؤلاء الأطباء الكثير من الحالات بالأفيون كما هو متبع حديثاً بعلاج هذه الحالات ببعض مشتقات الأفيون. وحالات أخرى عالجوها بالتحليل النفسي. وإلى جانب إقامتهم بيمارستانات متخصصة للأمراض العقلية والنفسية؛ فإن كثيراً من هذه الحالات كانت تعالج في البيمارستانات العامة مع بقية الأمراض؛ فإلى جانب عنابر الأمراض المختلفة كانت هناك عنابر للممرورين (أي لمرضى الأمراض العقلية والنفسية). حيث يتلقى المرضى الرعاية الطبية، بعكس أوروبا في ذلك الوقت حيث كانت تعزلهم في السجون مثل المجرمين.

طب الأطفال:

وبدون أن نتهم بالمبالغة نستطيع أن نقول إن أطباء الحضارة العربية الإسلامية هم أول مَن فصل طب الأطفال عن طب الكبار ليصبح تخصصاً قائماً بذاته في مستقبل الأيام. يقول أبو الحسن أحمد بن محمد الطبري: "لم يتكلم

أحد قبلي في علاج الأطفال كلاماً شافياً بل اعتمدوا في ذلك على الطب عامة"[٢٢]. علما أن اثنين قد سبقوه في الكتابة عن طب الأطفال وهما "ابن ربن الطبري" صاحب فردوس الحكمة وتلميذه الرازي. ولكن بمراجعة ما كتبه أبو الحسن أحمد الطبري نستطيع أن ندّعى أنه واضع أسس طب الأطفال، فهو قد تناول المشاكل الصحية عند الأطفال في ستين باباً في كناشة المعروف "المعالجات البقراطية" نذكر بعضاً منها[٢٣] لنتعرف على المواضيع التي كتب فيها والتي تخص الوضع الصحي عند الأطفال:

الباب الأول: في المرقة (الجرب) وأنواعها التي تصيب رأس الطفل وأنفه وأذنه وطرق العلاج.

الباب السابع: في الصرع عند الأطفال.

الباب الثامن: في العلة التي تحدث بالاصطكاك أي مرض الكزاز الذي يحدث عند الأطفال.

الباب العاشر: عن الكزاز عند الأطفال أيضاً.

الباب الثالث عشر: في أمراض الأنف عند الأطفال.

الباب الرابع عشر: في أمراض الأنف أيضاً والجراحة في معالجة الزوائد اللحمية فيه.

الباب الثاني والعشرون: البكاء عند الأطفال. وانظر عزيزي القارئ لدقة تحليله العلمي عند البحث عن أسباب البكاء حيث يقول:

obeikandl.com

"إذا بكى الطفل دائماً فهو لأحد أربعة أسباب: إما في بعض أعضائه، أو لاحتباس اللبن في معدته، أو لشيء يؤذيه في مضجعه، أو لقلة الغذاء وجوعه".

وهو يوصي بعدم إعطاء الطفل الأشربة المخدرة لإسكاته؛ بل بالبحث عن السبب في الأسباب الأربعة المذكورة.

الباب السادس والعشرون إلى الباب الواحد والثلاثين:

في الخرخرة التي تصيب حلوق الأطفال، وفي انطباق المريء. وتعوج رقبة الطفل والعطاس وغيره. وينبه عند ذكر العلاج والدواء: "أما الأدوية التي تستعمل للكبار فلا تصح للأطفال البتة ولا تحتملها معدتهم ولا أمزجتهم".

الباب الثالث والأربعون: في الحصبة والجدري.

الباب الرابع والأربعون إلى السابع والأربعين: في عموم الأمراض الجلدية التي تصيب عضو الطفل وفخذيه وجسمه.

الباب الثامن والأربعون: في ذكر الديدان التي تصيب الأطفال.

الباب التاسع والخمسون: عن آداب المرضع وتدبيرها. ويقول عن لبن الأم:

"أحسن اللبن للمولود لبن أمه لأنه أشبه بجوهرها يقدم من غذائه في الرحم".

الباب الستون: في كيفية العناية بالطفل وتدبيره من الولادة وتغذيته وتربيته إلى أن تنبت أضراسه.

نظام التخصص الطبي

لظهور هذه التخصصات وتطورها وتحولها من فروع لصنعة الطب إلى مهن قائمة بذاتها تحت الإطار العام لمهنة الطب؛ كان لا بد من وضع النظم لها لضبط الصنعة كما في الطب الطبائعي (الباطني العام). فكما كان يوجد رئيس للأطباء (الطبائعيين) كان يوجد رئيس للجرائحيين ورئيس للكحالين ورئيس للمجبرين ورئيس للحجامين وهكذا، كل منهم مسؤول عن طائفته مسؤولية رئيس الأطباء (الطبائعيين) عن الأطباء، كما ذكرنا سابقاً في الفصل الثاني من الباب الثاني في الحديث عن وظائف الإشراف الرقابي والإداري والمهني على صنعة الطب.

طرق التخصص:

وللوصول إلى التخصص الطبي كان أمام الشخص طريقان:

أولهما: أن يدرس الطالب الطب الطبائعي (الباطني العام) ويتخرج منه بعد تقديم الاختبار أمام رئيس الأطباء كما مر علينا. وأن يدرس بعد ذلك أو أثناءه أو قبله فرع تخصص آخر في الطب مثل الكحالة أو الجراحة ويقدم اختبار التخرج أمام رئيس هذا الفرع مثل رئيس الكحالين أو رئيس الجرائحيين.

مثال ذلك ما قام به ابن أبي أصيبعة صاحب عيون الأنباء في طبقات الأطباء "فالذي عرفناه من سيرته أنه درس الطب الطبائعي في دمشق والقاهرة

وتدرب وعمل في البيمارستان النوري في دمشق والصلاحي في القاهرة كطبيب طبائعي، وعمل كذلك كحالا حيث درس الكحالة على أبيه وجده. وكذلك رشيد الدين بن خليفة عم ابن أبي أصيبعة الذي درس الطب الطبائعي وعلم الكحالة وعلم الجراحة، ولندع ابن أبي أصيبعة يسرد لنا كيف تم ذلك:

"وشرع (يقصد عمه رشيد الدين) في تعلم صناعة الطب والنظر فيه، لازم جمال الدين بن أبي الحوافر. وكان في ذلك الوقت رئيس الأطباء بالديار المصرية،... وقرأ عليه شيئا من كتب جالينوس الستة عشر وحفظ منها الكتب الأولة في أسرع وقت. ثم باحث الأطباء ولازم مشاهدة المرضى بالبيمارستان، ومعرفة أمراضهم، وما يصف الأطباء لهم، وكان فيه جماعة من أعيان الأطباء. ثم قرأ في أثناء ذلك علم صناعة الكحل (طب العيون)، وباشر أعمالها عند القاضي نفيس الدين الزبير، وكان المتولي للكحل في ذلك الوقت في البيمارستان. وكذلك أيضا باشر معه في البيمارستان أعمال الجراح "[٢٤].

والشخص الذي درس الطب الطبائعي واجتاز اختباره أمام رئيس الأطباء ودرس فرعاً تخصصياً آخر مثل الكحالة والجراحة أو غيرها واجتاز اختبار الفرع التخصصي أمام رئيس أطباء هذا التخصص؛ يستطيع أن يمارس المهنتين: أي كطبيب طبائعي (باطني عام) المجاز فيه من رئيس الأطباء وكمتخصص في الفرع المجاز فيه من رئيسه.

يقول عبيدالله بن جبرائيل: "وكان والدي جبرائيل قد أصعد مع عضد الدولة من شيراز ورتب في جملة الطبائعيين في البيمارستان وفي جملة الأطباء الخواص"[٢٥].

ثانيهما: أن يبدأ الطالب دراسة فرع واحد من فروع الطب على أستاذ معلم من هذا التخصص الطبي، ثم يقدم اختبار التخرج أمام رئيس أطباء هذا الفرع وإذا اجتازه يصرح له بممارسة الطب في هذا الفرع فقط.

امتحانات التخصصات الطبية:

امتحان الكحالين:

كان على الطالب الذي يريد اجتياز هذا الامتحان أمام رئيس الكحالين وبإشراف المحتسب: أن يثبت معرفته في المقالات العشر لحنين بن إسحاق، عالما بتشريح طبقات العين السبع(حسب علمهم) وعدد رطوباتها الثلاث، محيطا بعدد أمراضها وأنواعها وما يتفرع من ذلك ضليعا بتركيب الأكحال وأمزجة العقاقير[٢٦].

امتحان المجبرين:

كان على الطالب أن يثبت أمام رئيس المجبرين وبإشراف المحتسب: معرفته الكاملة بالصنعة. وذلك أن يثبت علمه بما جاء في المقالة السادسة من كناش بولص في الجبر، عارفا بعدد عظام الإنسان وصورة كل عظم منها وشكله وقدره، قادرا على تجبير ما انكسر منها ورد ما انخلع من موضعه وإعادته على الهيئة التي كان عليها[٢٧].

امتحان الجرائحيين:

على طالب علم الجراحة الذي يقدم الامتحان أمام رئيس الجرائحيين وبإشراف المحتسب أن يكون عالما في كتب الجراحة مثل كتاب جالينوس: المقالات

السبع في الجراحات والمراهم وكذلك كتاب الزهراوي"المقالة الثلاثون" السابق ذكره. ضليعا في علم التشريح وأعضاء الإنسان وعضلاته وعروقه وشراينه والأوردة والأعصاب ليتجنب الجراح ذلك عند فتح الموادّ وقطع البواسير وإزالة اللوزتين، بالإضافة إلى ذلك قادرا على تفتيت الحصى وشق الدمامل وبضع الأعضاء والقسطرة والبزل، وأن يكون خبيرا بالآلات الجراحية المستعملة مثل القثاطير والمهت والمرود والفأس والمباضع والحربات ومنشار القطع ومجوفة الأذن [٢٨].

وهكذا تكون الامتحانات لبقية الفروع مثل امتحان الفصادين والكوائين وغيرهم. كل يمتحن في تخصصه أمام رئيس طائفته وبإشراف المحتسب الذي يمثل رقابه الدولة على هذه المهن.

وإذا اجتاز الشخص اختبار التخصص فإنه يحصل من المحتسب على رخصة العمل. وإذا كان لديه رخصة عمل لمزاولة الطب الطبائعي (الباطني العام) وحصل على رخصة عمل في تخصص ما في الطب؛ فبإمكانه ممارسة المهنتين كطبائعي وكطبيب من الخواص.

وإذا حصل فقط على ترخيص بمزاولة تخصص ما في الطب لا يسمح له العمل إلا في هذا الحقل ويطلب منه عدم الخروج عن نطاق حدوده.

نورد هنا مثالاً على تصريح (رخصة) عمل أعطيت لطبيب عربي مختص في الجراحات الصغيرة: "بإذن الله الباري العظيم نسمح له بممارسة فن

الجراحة لما يعلمه حق العلم ويتقنه حق الإتقان حتى يبقى ناجحا وموفقا في عمله. وبناء على ذلك، فإن بإمكانه معالجة الجروحات حتى تشفى، وبفتح الشرايين، واستئصال البواسير، وقلع الأسنان، وتخييط الجروح وتطهير الأطفال... وعليه أيضا أن يتشاور دوما مع رؤسائه ويأخذ النصح من معلميه الموثوق بهم وبخبرتهم"[٢٩].

obeikandl.com

هوامش الفصل الخامس من الباب الثاني

١- ابن جلجل: طبقات الأطباء والحكماء ص ٥-١٠.

٢- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ٤٣/١.

٣- ابن قيم الجوزية: الطب النبوي ص ١٢٤.

٤- المصدر السابق نفسه ١٢٤.

٥- زيجريد هونكه: شمس العرب ص ٣١٠.

٦- المكان نفسه.

٧- Major: A History of Med. Vol.1 p.240.

٨- زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، مصدر سابق، ص ٢٨٨.

٩- صدر في طبعة جديدة كاملة عام ١٩٩٣ حققها كل من الدكتور عبدالعزيز الناصر والدكتور علي التويجري.

١٠- الزهراوي: المقالة الثلاثون من التصريف لمن عجز عن التأليف ص ٥٢٤-٥٢٨.

١١- تجد كل هذا في "المقالة الثلاثون"

١٢- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مصدر سابق، ١٦٢١٦١/٢.

١٣- المصدر السابق نفسه ٢٤٩/٢.

١٤- المصدر السابق نفسه ٣٥٢/٢.

١٥- زيجريد هونكه: شمس العرب، مصدر سابق، ص ١٥٠.

١٦- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مصدر سابق، ١٤٩/٣.

١٧- المصدر السابق نفسه ١٩٨/٣.

١٨- زيجريد هونكه: شمس العرب، مصدر سابق، ص ٢٧٩.

١٩- المصدر السابق نفسه ص ٢٣٩.

٢٠- ابن قيم الجوزية: الطب النبوي، مصدر سابق، ص ١٢٧.

٢١- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مصدر سابق، ٤٣/٢-٤٤.

٢٢- عكاوي: الموجز في تاريخ الطب ص ٢١٧.

obeikandl.com

٢٣- المصدر السابق نفسه، ص ٢١٧٧-٢١٩.

٢٤- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مصدر سابق، ٤٠٣/٣.

٢٥- المصدر السابق نفسه ٣٤٤/٢.

٢٦- الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص ١٠٠.

٢٧- المصدر السابق نفسه ص ١٠١.

٢٨- المصدر السابق نفسه ص ١٠١-١٠٢، وأيضاً الرهاوي: أدب الطبيب ص ٢٥٢.

٢٩- زيجريد هونكه: شمس العرب، مصدر سابق، ص ٣٢٨.

obeikandl.com

الفصل السادس

تنظيم ممارسة صنعة الطب

من يقرأ كتب التراث الطبي وخاصة تلك التي تناولت تاريخ الطب العربي مثل كتب "ابن أبي أصيبعة" و" القفطي" و"ابن جلجل" وغيرهم، وتلك التي تناولت نظام الحسبة في الإسلام ككتب "ابن الأخوة" و"الشيزري"، ويكون في نفس الوقت مطلعا على نظم ممارسة مهنة الطب في العصر الحالي في الدول الحديثة؛ سيجد أن كثيرا مما جاء في هذه النظم الحديثة موجودٌ في كتب التراث وإن كان متفرقا، بل في بعض الأحوال يجد ما جاء في كتب التراث أكثر وضوحا وأدق تنظيما مما جاء في النظم الحديثة.

ونستطيع أن نجزم أن كثيرا من أطبائنا العرب الذين لم يطلعوا على التراث العربي في الطب خلال عصور الحضارة العربية الإسلامية؛ عندما يطلعون على نظم "ممارسة مهنة الطب" الحديثة سواء العربي منها أو الأجنبي، يعتبرونها حاصل نتاج تطور الطب الحديث حيث إنّهم يعتبرون أصلا أن هذا الطب الحديث هو حاصل نتاج الغرب؛ فيعتقدون ويؤمنون بأن هذه النظم إنما هي حاصل نتاج الغرب، وعندما يستشهدون بمواد قانونية تنظيمية لمهنة الطب في نقاشاتهم أو في كتبهم فإنهم يستشهدون بهذه النظم الغربية.

لذا كانت رغبتنا في هذا الفصل أن نذّكر هؤلاء ونبين للقارئ العزيز في نفس الوقت: أنّ الكثير مما جاء في هذه النظم الحديثة تعامل به الأجداد خلال تعاملهم اليومي مع مهنة الطب، لهذا حاولنا أن نجمع مِمَّا كتبه الأجداد مواضيع تنظم ممارسة المهنة وتحدد علاقة الطبيب بالمريض والمجتمع - قدر استطاعتنا - وترتيبها وصياغتها بأسلوب يحاكي "نظم ممارسة مهنة الطب" الحديثة من حيث تقسيمها إلى مواضيع رئيسة ومواد نظامية " لنقربها ونوضحها للقارئ، ويجب أن ننوه مرة أخرى أنه ليس لنا من فضل هنا غير جمعها وترتيبها على صيغ مواد نظامية، أما فضل وضعها وتطبيقها فيعود إلى الأجداد العظام، وستلاحظ سيدي القارئ أننا جعلناهم هم الذين يتكلمون ومن واقع ما كتبوا استشهدنا.

نظام ممارسة صنعة الطب خلال عصور الحضارة العربية الإسلامية

الترخيص بمزاولة المهنة

المادة الأولى:

لا يسمح بمزاولة صنعة الطب إلا بعد الحصول على إذن (ترخيص) عمل من المحتسب.

مر معنا أمر الخليفة المقتدر في سنة تسع عشرة وثلاثمئة هجرية في هذا الشأن ولا داعي لتكراره هنا: ارجع إلى الفصل الثاني - الباب الثاني، ويعتبر هذا التاريخ الحد الفاصل الذي أُلزم بعده الأطباء بالحصول على ترخيص عمل من المحتسب.

المادة الثانية:

يشترط للترخيص بمزاولة صنعة الطب ما يلي:

١- الحصول على شهادة اجتياز امتحان الطب أمام أحد رؤساء الأطباء المعينين من قبل الدولة على النحو التالي:

أ- طبيب طبائعي: شهادة اجتياز امتحان الطب الطبائعي أمام رئيس الأطباء.

ب- طبيب كحال: شهادة اجتياز امتحان الكحالة أمام رئيس الكحالين.

obeikandl.com

ت- جرائحي: شهادة اجتياز امتحان الجراحة أمام رئيس الجرائحيين.

ث- فصـاد: شهادة اجتياز امتحان الفصد أمام رئيس الفصادين.

وهكذا لبـقـيـة فـروع الطب. على ألا يمارس الطب إلا في الفـرع المصـرح له فقط.

٢- أن يكون قد أمضى فترة تدريب يعينها رئيس الأطباء والمحتسب في أحد البيمارستانات المعترف بها تحت إشراف أحد أساتذة الطب. وأن يكون لائقا صحيا ولديه الخبرة المطلوبة على ألا يمارس الطب إلا في المجال المصرح له فقط.

المادة الثالثة:

من حكم عليه بسبب جريمة أو تهمة تمس عقيـدته أو شرفه أو أمانته لا يمنح الترخيص بمزاولة الصنعة.

مر معنا كيف اهتم أطباء الحضارة العربية الإسلامية بألا يسمح لشخص بتعلم الطب وممارسته إلا بعد انطباق شروط أخلاقية وسلوكية معينة عليه، وذلك نابع من عقيدتهم الدينية واعتبارهم الطب من أشرف المهن؛ ولقد مر معنا قول الشافعي: "العلم علمان علم الأبدان، وعلم الأديان". ولا يوجد طبيب كبير منهم إلا كتب في شرف المهنة وصفات وسلوكيات الطبيب. والأمثلة كثيرة لمن يرجع إلى كتابات الرهاوي وأبي العلاء صاعد وابن رضوان، والرازي والشيرازي وكتب الحسبة. وحتى قبل قرار المقتدر بتنظيم الطب بفرض الامتحانات وإلزام تصاريح العمل؛ نجد الخليفة المتوكل يوقف حنين بن إسحاق أحد أكبر الأطباء

في عصره (في محنته الثانية) عن العمل، وفي رواية أنه سجنه أيضاً عندما اتهم في عقيدته، وحكم عليه من أفراد ملته بالحرمان واللعن[١].

ويقول أبو علاء صاعد بن حسن: "ومن صفات الطبيب أن يكون...، طاهرا في نفسه متمسكا بدينه لازما لشريعته"[٢].

المادة الرابعة:

مدة صلاحية تصريح مزاولة الصنعة ليست مطلقة؛ حيث يمكن للمحتسب -لأسباب يراها- وقف التصريح وإحالة الطبيب إلى رئيس الأطباء لامتحانه أو وقفه وقفا نهائيا عن العمل. كما أن هذا حق من حقوق رئيس الأطباء.

وللاستدلال يمكن الرجوع إلى ما كتبناه عن مسؤوليات المحتسب ورئيس الأطباء في الفصول السابقة. وكذلك وجدنا النص التالي؛ أورده ابن أبي أصيبعة في ترجمته للطبيب أحمد بن حكيم بن حفصون: " فأسقط حينئذ من ديوان الأطباء وبقي مخمولا إلى أن توفى"[٣].

المادة الخامسة:

يعد المحتسب سجلات يسجل فيها أسماء الأطباء العاملين في فروع الطب المختلفة وأماكن عملهم وحوانيتهم (عياداتهم).

سبق أن ذكرنا أنه كان للمحتسب سجلات يسجل فيها أسماء أصحاب الحرف والمهن (ومن ضمنهم الأطباء وأماكن حوانيتهم[٤].

واجبات الطبيب العامـة

المادة السادسة:

يجب على الطبيب بذل قصارى جهده في المحافظة على صحة الفرد وصحة المجتمع.

تحدثنا سابقا عن عنايتهم الفائقة بالحفاظ على صحة الفرد، فقد عرّفوا الطب وبالتالي عمل الطبيب بأنه "حفظ الصحة الموجودة ورد الصحة المفقودة"؛ بل بالغ سنان بن ثابت بن قرة في ذلك عندما قال لعضد الدولة البويهي: "إنّ موضوع صناعتنا حفظ الصحة لا مداواة الأمراض "[٥]. ولا يوجد كتاب طبي من ذلك العصر لا يخلو من طرق حفظ الصحة وتدبيرها. ومنهج ابن سينا في القانون أن يتناول أعضاء جسم الإنسان أولا بالوصف التشريحي ثم كيفية حفظ صحة العضو المعين ثم الأمراض التي تصيبه وعلاجها. ومن هنا جاء اهتمامهم بتغذية الفرد وبالتالي التغذية بوجه عام، ونظافة الفرد وبالتالي النظافة العامة، وكلامهم وشروطهم كثيرة في السكن الصحي والغذاء الصحي وكيف يجب أن يحيا الإنسان على نمط صحي في حياته الخاصة والعامة.

فلننظر فيما كتبه ابن سينا عن وجوب غليان الماء قبل شربه في السفر ويفضل تقطيره.

حيث قال: "إن اختلاف المياه قد يوقع المسافر في أمراض أكثر من اختلاف

الأغذية، فيجيب أن يراعى ذلك بتدارك أمر الماء. ومن تداركه كثرة ترويقه وكثرة استرشاحه من الخزان الرشاح وطبخه، كما قد بينا العلة فيه قد يصفيه ويفرق بين جوهر الماء الصرف وبين ما يخالطه وأبلغ من ذلك كله تقطيره بالتصعيد"(٦).

ويقول الرهاوي عن واجب الطبيب: "أن يكون عقله منصرفا إلى مصالح الناس"(٧).

المادة السابعة:

يجب على الطبيب التعاون مع المحتسب عند أداء واجبه في حماية الصحة العامة. وأيضا التعاون معه في القضاء على المشعوذين والدجالين والجهلة وإبعادهم عن ممارسة الصنعة.

وقد تحدثنا سابقاً بما يكفي عن علاقة المحتسب بالطبيب.

المادة الثامنة:

يجب على الطبيب ألا يتوانى عن تقديم خدماته لمن يحتاجها، خاصة في وقت الضرورة.

أورد أبو العلاء صاعد بن الحسن في التشويق الطبي نقلا عن أبقراط: "ولا يتوانى عنهم عند الشدائد ولا يخذلهم في وقت حاجتهم إليه،...، وإن اتفق له مريض فقير غريب فينبغي له أن يعالجه ويقوم بتدبيره"(٨).

المادة التاسعة:

يجب على الطبيب ألا يتجاوز اختصاصه والمجال الذي صرح له من المحتسب العمل فيه.

ذكرنا سابقا أنه إذا حصل الطبيب على ترخيص بمزاولة تخصص ما في الطب فإنه لا يسمح له العمل إلا في هذا الحقل ويطلب منه عدم الخروج عن نطاقه وحدوده. وأوردنا الفقرة الخاصة بذلك من قسم أبقراط: "ولا أشق أيضا عمن في مثانته حجارة، ولكن أترك ذلك إلى من كانت حرفته هذا العمل"(٩).

وكتب القلقشندي عن واجبات الطبيب الكحال: "وأن يستشير الأطباء الطبائعية فيما أهم، مما لا يستغني عن رأي مثلهم فيه"(١٠).

المادة العاشرة:

يجب على الطبيب أن يسعى دائما إلى تنمية معلوماته وأن يبقى على اتصال دائم بالعلم.

نذكّر القارئ بما كتبناه عن التعليم الطبي المستمر بعد الحصول على التصريح الطبي. واهتمام الأطباء الكبار بذلك وكذلك الدولة ممثلة بالمحتسب.

ونذكّر بقول موفق الدين البغدادي: "ولا تظن أنك إذا حصلت علما فقد اكتفيت بل تحتاج إلى مراعاته لينمو ولا ينقص"(١١).

وقول أبي العلاء صاعد بن حسن:" أن يكون (الطبيب) في بيته مكبا على

النظر في العلوم التي ذكرنا أنه محتاج إليها. مؤثرا لها على اللذيذ من المطعم والمشرب والمنكح"[١٢].

كما قال:" ويواظب على الدخول إلى البيمارستانات والخدمة فيها والتصفح لغرائب الأمراض التي يجدها"[١٣].

وينقل عن أبقراط:" ومن كان غريقا في حومة قلة العلم لا يعرف شيئا من هذا ولا يحسنه فلا ينبغي أن يسمى طبيبا "[١٤].

ويقول علي بن رضوان:" أن يكون حريصا على التعلم والمبالغة في نفع الناس"[١٥].

المادة الحادية عشرة:

يجب على الطبيب ألا يصف شيئا من السموم والأدوية القاتلة.

يقول أبو العلاء صاعد بن حسن: "ومن اللازم الواجب على الطبيب ألا يصف شيئا من السموم والأدوية القاتلة ولا يذكرها البتة، ولا يصف دواء يسقط الأجنة ولا يتكلم إلا بما فيه جلب منفعة أو دفع مضرة. فإن فعل شيئا من ذلك فالسلطان أولى به والله مكافئه في الدارين"[١٦].

وقال علي بن رضوان: "أن يكون مأمونا ثقة على الأرواح، ولا يصف دواء قتالا، ولا يعلّمه"[١٧].

obeikandl.com

المادة الثانية عشرة:

يجب على الطبيب ألا يصف دواء يسقط الأجنة.

قال علي بن رضوان: "لا يصف دواء قتالا، ولا يعلمه ولا دواء يسقط الجنين، ويعالج عدوه بنيه صادقة كما يعالج حبيبه "[١٨].

المادة الثالثة عشرة:

يجب أن يكون الطبيب حسن الملبس طيب الرائحة نظيف البدن والثوب[١٩].

المادة الرابعة عشرة:

يجب على الطبيب أن تكون رغبته في إبراء المرض أكثر من رغبته فيما يلتمسه من الأجرة ورغبته في علاج الفقراء أكثر من رغبته في علاج الأغنياء[٢٠].

oberikandl.com

واجبات الطبيب نحو المريض

المادة الخامسة عشرة:

يجب على الطبيب أن يبذل قصارى جهده في تشخيص المرض مستعينا بالوسائل اللازمة المتوفرة.

يقول أبو العلاء صاعد بن حسن: "ولا يصف للمريض شيئاً حتى يجيد البحث والسؤال والاستقصاء ويستدل بالعلامات والدلائل على المرض ويفهم السبب فحينئذ يصف بنصح واجتهاد ما يعلم أنه في الغاية من المداواة"(٢١).

ويقول القلقشندي في صبح الأعشى في صناعة الإنشا في وصية طبيب طبائعي وهو نص سنعتمد عليه كثيراً في التعرف على واجبات الطبيب: يجب على الطبيب "أن يعرف أولا حقيقة المرض وأسبابه وعلاماته، ثم ينظر إلى السن والفصل والبلد، وحينئذ يشرع في تخفيف الحاصل، وقطع الواصل، مع حفظ القوة"(٢٢).

المادة السادسة عشرة:

يجب على الطبيب أن يحسن تقدير الأدوية في الكمية والكيفية والوقت وجهة الاستعمال واختبار المواد(٢٣).

قال القلقشندي:" وألا يهاجم الداء ولا يستغرب الدواء ولا يقدم على الأبدان إلا ما يلائمها "(٢٤).

وقال ابن سينا: "وأما المعالجة بالدواء فلها ثلاثة قوانين:

أحدها قانون اختيار كيفيته: أي اختياره حارا أو باردا، أو رطبا أو يابسا.

والثاني قانون اختيار كميته: وهذا ينقسم إلى قانون تقدير وزنه وإلى قانون تقدير كيفيته أي درجة حرارته وبرودته وغير ذلك.

والثالث قانون ترتيب وقته"[٢٥].

المادة السابعة عشرة:

يجب على الطبيب ألا يخرج عمّا استقر عليه الطب ووافق عليه الأطباء.

يقول القلقشندي في صبح الأعشى:" ولا يخرج عن عادة الأطباء ولو غلب على ظنه الإصابة.

المادة الثامنة عشرة:

يجب على الطبيب أن يحذر من التجريب بدون علم بذلك وأن يتم تحت شروط ومعايير معينة.

تحدثنا فيما سبق كثيرا عن تحويل العرب لعلم الطب من علم تأملي فلسفي إلى علم تطبيقي تجريبي؛ ولكن يجب أن تتم التجربة تحت شروط معينة وأن يكون القائم بها عالما وليس جاهلا وذلك حفاظا على صحة الأفراد.

obeikandl.com

يقول القلقشندي: "وأن يحذر التجربة فإنها خطر، مع الاحتراز في المقادير والكيفيات، وفي الاستعمال والأوقات وما يتقدم ذلك الدواء أو يتأخر عنه، ولا يأمر باستعمال دواء ولا ما يستغرب من غذاء حتى يحقق حقيقته ويعرف جديده من عتيقه ليعرف مقدار قوته في الفعل "[٢٦].

ويقول في نفس الصياغ:" إلا ما صح بتجريب غيره في مثل من أخذ في علاجه"[٢٧].

ويقول الطبري في " فردوس الحكمة": " ولا ينبغي لأحد أن يعجل بالعلاج. ولا يقوم عليه إلا بعد التجربة ومعرفة الأدوية، لأن الدواء يصير في يد الجاهل كالسم الزعاف... وربما كان السم بحكمة الحكيم وحسن تقديره مثل ماء الحياة"[٢٨].

المادة التاسعة عشرة:

يجب على الطبيب استشارة زملائه في الغريب من الأمراض.

هناك نصوص كثيرة وروايات عديدة في تراثنا الطبي تروي وتحض على الاستشارة الطبية بين زملاء المهنة الواحدة سواء كانوا زملاء في الفرع الواحد من الطب كالطب الطبائعي أو بين الزملاء في فرعين مختلفين للطب. وقد أوردنا قبل ذلك عدة أمثلة؛ وسنورد هنا أمثلة أخرى:

يقول القلقشندي: "حتى يتبصر فيه برأي أمثاله"[٢٩].

وكتب الشيزري في نهاية الرتبة في طلب الحسبة: "وينبغي للمحتسب أن يأخذ عليهم (أي الفصادون) العهد والميثاق ألا يفصدوا في عشرة أمزجة، وليحذروا فيها حذرا، إلا بعد مشاورة الأطباء"[٣٠].

وقال رشيد الدين علي بن خليفة:" وإن أشكل فأشرك غيرك فيه، فإن لكل ذهن خاصية بمعان دون معان"[٣١].

وموفق الدين بن المطران طبيب صلاح الدين الأيوبي المقرب عندما وجد شخصا بين مرضاه في البيمارستان النوري يعاني من استسقاء زقي[٣٢]؛ أستدعى"ابن حمدان الجرائحي " وكان من كبار الجراحين في المستشفى فاستشاره ثم قررا بزله[٣٣]. كتب ابن أبي أصيبعة: "وهو (ابن المطران) يعالج المرضى المقيمين به (يقصد البيمارستان الكبير الذي بناه نور الدين الزنكي) فكان من جملتهم رجل به استسقاء زقي قد استحكم به فقصد إلى بزله، وكان في ذلك الوقت في البيمارستان "ابن حمدان الجرائحي، وله يد طولى في العلاج، فجزموا على بزل المستسقي"[٣٤].

المادة العشرون:

يجب على الطبيب إذا أمكنه أن يعالج بالغذاء فلا يقرب الدواء أو يعالج بالدواء فلا يقرب الحديد إلا فيما لا بد منه[٣٥].

هناك إجماع من أطباء الحضارة العربية الإسلامية على مر عصورها على هذه القاعدة الطبية في العلاج.

قال ابن قيم الجوزية في كتابه "الطب النبوي" عند ذكره لصفات الطبيب الحاذق:

"أن يعالج الأسهل فالأسهل فلا ينتقل من العلاج بالغذاء إلى الدواء إلا عند تعذره، ولا ينتقل إلى الدواء المركب إلا عند تعذر الدواء البسيط، فمن حذق الطبيب علاجه بالأغذية بدل الأدوية وبالأدوية البسيطة بدل المركبة"(٣٦).

وكتب القلقشندي في وصية طبيب طبائعي: "يجب على الطبيب تجنب الدواء ما أمكنه المعالجة بالغذاء والمركب ما أمكنه المعالجة بالمفرد. ويتجنب القياس إلا ما صح بتجريب غيره في مثل من أخذ في علاجه"(٣٧).

ورتبها ابن سينا هكذا: "إن أمر العلاج يتم من أشياء ثلاثة أحدها: التدبير والأغذية والآخر: استعمال الأدوية، والثالث: استعمال أعمال اليد"(٣٨).

المادة الحادية والعشرون:

يجب على الطبيب التنبيه على المريض وذويه وخدمه ضرورة اتباع أوامره وتعليماته العلاجية. وللطبيب حق التوقف عن مواصلة العلاج إذا وجد عدم جدية في اتباع تعليماته.

يقول أبو العلاء صاعد بن حسن:"فإن ظهر للطبيب من المريض أو ممن يليه تلجلج أو بهرجة القول أو أحس بمغالطة أو مخالفة لما يأمر به فليهرب منهم، فإن الخطأ ينسب إليه لا إليهم"(٣٩).

ويقول الرهاوي في أدب الطبيب: "فإن يكن المريض، أو من يخدمه يعون ويفهمون وصف أدويته وأغذيته، بل أثبتها لهم، فإن ذلك أسلم له ولهم"[٤٠].

والرهاوي وغيره من الأطباء أفردوا فصولا في كتبهم لتبيان العلاقة المثلى التي يجب أن تسود بين الطبيب والمريض وذويه وخدمه. يقول الرهاوي في الفصل الرابع من أدب الطبيب تحت عنوان "فيما يجب على الطبيب أن يوصي به خدم المريض:

"فيجب عليه (أي الطبيب) أن يوصى المتولي لخدمته (أي لخدمة المريض) -بعد علمه بفهمه-: كيف يصلح دواءه وغذاءه، ومقدار كل واحد منهما، وزمانه، وغير ذلك من سائر تدابيره. ولأن منزل المريض ربما كان غير موافق له، لمجاورته بما يؤذيه من روائح أو أصوات أو غير ذلك من المضرات به، فيجب على الطبيب أن يأمر بنقله من ذلك المنزل إلى الأوفق له...، وبالجملة فإن جميع ما يعمل مع المريض مما لا يوافق عمل الطبيب فهو يفسد عليه علاجه، فيجب أن نحذر من ذلك"[٤١].

المادة الثانية والعشرون:

يجب على الطبيب الحصول على إذن المريض أو من وليه إن لم يعتد برأيه قبل معالجته.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: "لددنا النبي ﷺ في مرضه، فقال: لا تلدّوني فقلنا: كراهية المريض للدواء، فلما أفاق قال: لا يبقى أحد منكم إلا

لدّ، غير العباس، فإنه لم يشهدكم"[٤٢] اللدود ما سقى الإنسان في أحد شقي الفم.

يؤخذ من هذا وجوب موافقة المريض على العلاج وبإذنه وإلا اعتبر العمل الطبي تعديا يجب تعزير القائم به[٤٣].

وقال ابن قيم الجوزية:" طبيب حاذق، أعطى الصنعة حقها، فقطع سلعة من رجل أو صبي أو مجنون بغير إذنه أو إذن وليه، أو ختن صبيا بغير إذن وليه فتلف، فقال أصحابنا: يضمن، لأنه تولد من فعل غير مأذون فيه، وإن أذن له البالغ، أو ولى الصبي والمجنون، لم يضمن..."[٤٤].

وقال ابن قدامة: "وإن قطع طرفا من إنسان فيه أكلة أو سلعة بإذن وهو كبير عاقل فلا ضمان عليه، وإن قطعه مكرها، فالقطع وسرايته مضمون بالقصاص سواء كان القاطع إماما أو غيره لأن هذا جراحة تؤدي إلى التلف، والأكلة إن كان بقاؤها مخوفا فقطعه مخوف. وإن كان من قطعت منه صبيا أو مجنونا وقطعه أجنبي (أي بدون موافقة الولي) فعليه القصاص لأنه لا دية له عليه"[٤٥].

المادة الثالثة والعشرون:

يجب على الطبيب أن يحافظ على الأسرار التي حصل عليها عن طريق مهنته.

لقد أولى علماء الطب في الحضارة العربية الإسلامية حفظ أسرار المريض

عنايتهم البالغة، وأجمعوا على ضرورة صيانة سر المريض وعدم إفشائه، ما لهذا الأمر من دور في بناء الثقة بين الطبيب والمريض.

يقول أبقراط في عهده: "وأما الأشياء التي أعاينها في أوقات علاج المرضى، أو أسمعها أو في غير علاجهم في تصرف الناس من الأشياء التي لا ينطق بها خارجا فأمسك عنها، وأرى أن أمثالها لا ينطق به "(٤٦).

ويقول أبو العلاء صاعد بن الحسن عن واجب الطبيب في كتم السر:" ويكتم أسرار المرضى فإن كثيرا من الأمراض لا يجوز أن يذكرها الطبيب لغير أصحابها كالبواسير وأمراض الأرحام وغيرها"(٤٧).

ويقول علي بن رضوان في صفات الطبيب:" أن يكون كتوما لأسرار المرضى لا يبوح بشيء من أمراضهم"(٤٨).

وقال الرازي: "واعلم يا بني أنه ينبغي للطبيب أن يكون رفيقا بالناس حافظاً لغيبتهم، كتوما لأسرارهم، لا سيما أسرار مخدومه، فإنه ربما يكون ببعض من المرض ما يكتمه من أخص الناس به"(٤٩).

ويقول الرهاوي:"ووجه العدل وابتداؤه ينبغي أن يكون من الطبيب أولا، وذلك بأن يروض نفسه، ويأخذها دائما باستعمال الأخلاق المحمودة، والأفعال المرضية، من الرحمة والرأفة والرفق، والعفة، والقناعة، والشجاعة والسخاء، والصدق، وكتمان السر"(٥٠).

المسؤولية المهنيـــة

ضمان الطبيب:

سنتحدث في هذا الجزء عن المسؤولية المهنية وضمان الطبيب، ونود أن نذكّر بما قلناه في مقدمة هذا الكتاب من الغرض من كتابته وهو تبيان تنظيم العرب لطبهم خلال عصور ازدهار الحضارة العربية الإسلامية للقراء الأعزاء. هذا التنظيم الذي في اعتقادنا، كان أحد الأسباب الرئيسة للتطور الطبي الهائل الذي تم في تلك العصور، خاصة أنه أنبثق وتطور مع تطور المجتمع في الدولة الإسلامية، وكان متطابقا مع الشريعة الإسلامية: دين الدولة والمجتمع ومعظم أفراده.

وحيث إن هذا الجزء (ضمان الطبيب) له علاقة قوية بالفقه الإسلامي، مما يتوجب الدخول في أبحاث فقهية كثيرة ليس مجالها هنا، ولها رجالها وإنما غرضنا التعريف بالنظم الطبية التي كانت سائدة في تلك العصور وإثبات وجودها للقراء الأعزاء ولمن أنكرها أصلا، أو لمن اعتقد أن جميع النظم الطبية هي إنتاج العصر الحديث وبالتالي استوردت من الغرب؛ لذا لن ندخل في الأبحاث الفقهية ورأي المذاهب المختلفة التي أجمعت على الأصول واختلفت في الفروع وسنورد هنا فقط ما كتبه ابن قيم الجوزية في الطب النبوي في هذا المجال فقد شرح فأوفى وفصل فأوجز بدون استطالة لا داعي لها. ومن أراد المزيد فيمكن له الرجوع إلى المؤلفات الفقهية المتخصصة.

المادة الرابعة والعشرون:

يجب على الطبيب أن يتوخى مصلحة المريض ولا يخرج عمّا استقر عليه الطب ووافق عليه الأطباء.

قال القلقشندي:" ولا يقدم (أي الطبيب) على الأبدان إلا ما يلائمها ولا يخرج عن عادة الأطباء ولو غلب على ظنه الإصابة حتى يتبصر فيه برأي أمثاله"(٥١).

وقال الرهاوي نقلاً عن أبقراط: "وينبغي أن تلزم نفسك سنّتين إحداهما أن تنفع المريض والأخرى ألا تضره"(٥٢).

وكتب الرهاوي أيضا: "وينبغي للطبيب أن لا يتبع إرادة المريض إذا لم تكن موافقة لصلاحه، ولا ينبغي أن يحمله على ذلك رهبة منه ولا رغبة في ماله، بل من الله يجب أن يرهب واليه يجب أن يرغب"(٥٣).

المادة الخامسة والعشرون:

إذا حدث خطأ طبي أو مضاعفات أدت إلى الموت أو تلف عضو تتحدد مسؤولية الطبيب طبقا لما يأتي:

١- إذا كان الشخص القائم بالعلاج مدعيا للطب جاهلا به فهو ضامن لما فعله.

عملا بالحديث النبوي الشريف قال رسول الله ﷺ:"من تطبب ولم يعلم منه الطب قبل ذلك فهو ضامن"(٥٤). ويندرج تحت هذا إذا كان الشخص طبيباً في

فرع ما من الطب، وصرح له من المحتسب بالعمل فيه فقط، ومارس الطب في فرع آخر غير مصرح له العمل فيه يكون ضامنا لما يفعله من ممارسة في هذا الفرع. قال الخطابي: " لا أعلم خلافا في أن المعالج إذا تعدى، فتلف المريض كان ضامنا، والمتعاطي علما أو عملا لا يعرفه متعد، فإذا تولد من فعله التلف ضمن الدية، وسقط عنه القود، لأنه لا يستبد بذلك بدون إذن المريض وجناية المتطبب في قول عامة الفقهاء على عاقلته"(٥٥).

وقال ابن قيم الجوزية:"متطبب جاهل باشرت يده من يطبه فتلف به، فهذا إن علم المجني عليه أنه جاهل لا علم له، وأذن له في طبه لم يضمن، ولا تخالف هذه الصورة ظاهر الحديث، فإن السياق وقوة الكلام يدل على أنه غرّ العليل، وأوهمه أنه طبيب، وليس كذلك، وإن ظن المريض أنه طبيب، وأذن له في طبه لأجل معرفته، ضمن الطبيب ما جنت يده، وكذلك إن وصف له دواء يستعمله، والعليل يظن أنه وصفه لمعرفته وحذقه فإن تلف به، ضمنه والحديث ظاهر فيه أو صريح"(٥٦).

٢- إذا كان الشخصُ القائم بالعلاج طبيباً حاذقاً مصرحاً له بالعمل من قبل المحتسب وقام بعمله على أكمل وجه من جهة بذل العناية الطبية بما يتفق مع الأصول الطبية المتبعة في مثل هذه الحالات، وقام بعمله بعد أخذ موافقة المريض أو وليه، وعلى الرغم من ذلك حدثت مضاعفات أدت إلى فقد عضو أو ذهاب صفة أو الموت؛لا تقع أي مسؤولية على الطبيب المعالج.

يقول ابن القيم الجوزية:" طبيب حاذق أعطى الصنعة حقها ولم تجن يده، فتولد من فعله المأذون فيه من جهة الشارع (المحتسب)، أو من جهة من يطبه

(المريض أو وليه) تلف العضو أو النفس، أو ذهاب صفة، فهذا لا ضمان عليه اتفاقا، فإنها سراية مأذون فيه، وهذا كما إذا ختن الصبي في وقت، وسنه قابل للختان، وأعطى الصنعة حقها، فتلف العضو أو الصبي، لم يضمن، وكذلك إذا بط من عاقل أو غيره ما ينبغي بطه في وقته على الوجه الذي ينبغي فتلف به، لم يضمن [٥٧].

٣- إذا كان الشخص القائم بالعلاج طبيباً حاذقاً مصرحاً له بالعمل من المحتسب، وقام بعمله على أكمل وجه من جهة بذل العناية الطبية بما يتفق مع الأصول الطبية المتبعة في مثل هذه الحالات، ولكنه لم يأخذ موافقة المريض البالغ العاقل أو وليه فإن الطبيب يضمن أي يكون مسؤولا عن أية مضاعفات تحصل وتؤدي إلى فقد عضو أو ذهاب صفة أو الموت.

يقول ابن قيم الجوزية:" طبيب حاذق أعطى الصنعة حقها، فقطع سلعة من رجل أو صبي أو مجنون بغير إذنه، أو إذن وليه، أو ختن صبيا بغير إذن وليه فتلف، فقال أصحابنا يضمن، لأنه تولد من فعل غير مأذون فيه، وإن أذن له البالغ، أو ولي الصبي والمجنون، لم يضمن... (ثم يضع ابن قيم اجتهاده الفقهي مخالفا هذا الرأي وهو ليس مجالنا هنا)"[٥٨].

٤- إذا كان الشخص القائم بالعلاج طبيباً حاذقاً مصرحاً له بالعمل من المحتسب ولديه موافقة من المريض أو من وليه إن كان صبيا أو مجنونا، وأعطى الصنعة حقها ولكنه أخطأت يده مما أدى إلى إتلاف عضو أو ذهاب صفة أو الموت، فإنه يكون مسؤولاً عن خطأه.

يقول ابن قيم الجوزية: " طبيب حاذق أذن له، وأعطى الصنعة حقها لكنه أخطأت يده، وتعدت إلى عضو صحيح فأتلفه، مثل: أن سبقت يد الخاتن إلى الكمرة، فهذا يضمن، لأنها جناية خطأ، ثم إن كانت الثلث فما زاد، فهو على عاقلته، فإن لم تكن عاقلة، فهل تكون الدية في ماله، أو في بيت المال؟ على قولين، هما روايتان عن أحمد. وقيل: إن كان الطبيب ذميا، ففي ماله، وإن كان مسلما، ففيه الروايتان، فإن لم يكن بيت مال أو تعذر تحميله، فهل تسقط الدية، أو تجب في مال الجاني؟ فيه وجهان أشهرهما: سقوطها"[٥٩].

٥- إذا كان القائم بالعلاج طبيباً حاذقاً مصرحاً له بالعمل من المحتسب ولديه موافقة المريض وقام بالكشف على المريض حسب الأصول المتبعة ثم اجتهد فوصف للمريض دواء، وكان اجتهاده خطأ مما أدى إلى موت المريض، يكون للمريض دية تدفع للورثة.

يقول ابن قيم الجوزية: "الطبيب الحاذق الماهر بصناعته، اجتهد فوصف للمريض دواء، فأخطأ في اجتهاده، فقتله، فهذا يخرج على روايتين: إحداهما: إن دية المريض في بيت المال. والثانية: إنها على عاقلة الطبيب، وقد نص عليهما الإمام أحمد في خطأ الإمام والحاكم"[٦٠].

وفي ختام هذه المادة نورد ما كتبه أبو العلاء صاعد بن حسن في هذا المجال في كتابه التشويق الطبي:

"الواجب على الطبيب أن يحسن تقدير الأدوية في الكمية والكيفية والوقت وجهة الاستعمال واختيار المواد، ومن هاهنا يدخل عليه الغلط، فما عرض له من

ذلك وكان عن تعمد منه له أو لجهل به، فهو ملعون به ومبعد لأجله من أهل هذه الصناعة، بل يجب أن يؤدب ويعزر، وما كان عن سهو منه فمعذور منه؛ إذْ كان الإنسان غير معصوم من الغلط، وهو أولى من حاسب نفسه على ذلك وعاد إلى الحق، لأن سائر الصناع سوى الطبيب إذا أفسدوا شيئاً مما يعملونه تلافوا أمره وأمكن أن يصلحوه، والغلط هاهنا بالأنفس والخطأ بالمهج ونحن نستعين بالله ونسترشده إلى سلوك سبيل الحق ونسأله العصمة عما لا يرضيه"[٦١].

obeikandl.com

واجبات الطبيب نحو نفسه

لقد وصل العرب إلى درجة عالية من دقة التنظيم ولم يتركوا شاردة أو واردة لها علاقة بالطب إلا وحاولوا أن يضعوا لها تنظيماً، وذلك نابعٌ من إيمانهم بشرف مهنة الطب وعلو منزلتها، يقول أبو العلاء صاعد بن الحسن:"وإذا كانت هذه الصناعة قد وضعها الله تعالى واستعملها الأنبياء والأتقياء وأمروا بها ولم تحذرها شريعة ولا حرمتها ملة فقد بان فضلها وجل قدرها، فلذلك ترى الناس لاضطرارهم إليها يجلونها ويبجلونها، ويحتفظون بما يقع لهم من كتبها وينسخونها، ويرفعون قدر من يعلمها ويلجؤون إليه"(٦٢).

فهم لم يهتموا فقط بوضع صفات للطبيب الجيد وصفات للطبيب السيئ ومن يحق له تعلم هذه المهنة الشريفة ومن ليس له هذا الحق، وبينوا واجبات الطبيب العامة نحو المجتمع والفرد الصحيح والفرد المريض؛ بل اهتموا أيضا بعناية الطبيب بنفسه، وبالتالي بمهنته وشرفها وجعلوا من ذلك واجبا على الطبيب القيام به، وأفردوا لذلك فصولا في كتبهم. وكثير منهم وضعوا لأنفسهم دستورا يسيرون عليه طوال حياتهم المهنية. يقول علي بن رضوان عند سرده لسيرته:

"وكنت منذ السنة الثانية والثلاثين إلى يومي هذا أعمل تذكرة لي وأغيرها في كل سنة إلى أن قررتها على هذا التقرير الذي أستقبل به السنة الستين من

ذلك أتصرف في كل يوم في صناعتي بمقدار ما يغنى، ومن الرياضة التي تحفظ صحة البدن، وأغتذي بعد الاستراحة من الرياضة غذاء أقصد به حفظ الصحة.....ولا بد أن يحصل مع ذلك، كسب ما ينفق فأنفق منه على صحة بدني، وعمارة منزلي نفقة لا تبلغ التبذير، ولا تتحط إلى التقتير، وتلزم الحال الوسطى بقدر ما يوجبه التعقل في كل وقت"(٦٣).

وإذا وضعنا هذه الواجبات على صيغة مواد نظام كما فعلنا في الواجبات الأخرى فإنها تكون على الوجه التالي:

المادة السادسة والعشرون:

يجب على الطبيب ألا يدبر صحيحاً ولا مريضاً إلا بعد خلو فكره، وإعطائه لنفسه وجسمه ما يحتاجان إليه من مصالحهما.

يقول الرهاوي:" ينبغي للعقلاء كافة أن يعدوا مصالحهم، ويدخروا منافعهم من صيفهم لشتائهم، ومن صحتهم لوقت مرضهم، ومن شبابهم لوقت شيخوختهم. وإذا كان ذلك واجبا على سائر الناس، نافعا لهم بأسرهم، فذلك للطبيب أنفع، وعليه الاهتمام بذلك أوجب... ولأجل ذلك ينبغي للطبيب ألا يدبر صحيحا ولا مريضا إلا بعد خلو فكره، وإعطائه لنفسه وجسمه ما يحتاجان إليه من مصالحهما، فأما لنفسه فسكونها هو بما قدمناه من الأمن من الفاقة والأمور المفزعة، وأما جسمه فبأن تكون سائر حواسه قد أخذت بحظها النافع لها من محسوساتها"(٦٤).

ويبين أيضاً في مكان آخر من كتابه أدب الطبيب أهمية أن يتكسب الطبيب من مهنة الطب وليس من مهنة أخرى لكي لا تنقطع صلته بالعلم والصنعة مما يؤدي إلى ضرر قد يفوق ضرر الأمراض، ثم يقول:" فقد بقي إذن أن يكون للطبيب مادة يكتسبها من جهة صناعته، وممن يدبرهم في حفظ صحة أصِحّائهم، وفي معالجة مرضاهم"(٦٥).

ويطلب أبو العلاء صاعد بن الحسن من الطبيب أن يحافظ على صحته، وأن يكون قليل النهم والشره على الأكل والشرب واتباع الشهوات، وأن لا يخلط في مطعمه ومشربه لأن ذلك مفسد لصحته وصناعته، ثم يقول:"وإذا عدم الطبيب الصحة كان ذلك مما يطلق عليه الألسن بالوقيعة والذم ويورثه خصالاً منها حياؤه وخجله إذا سئل عن سبب ذلك، ومنها أن القلوب تنفر منه إذا كان الطبيب لم يمكنه حفظ صحته ودفع مرضه، فهو أحرى ألا يمكنه ذلك في غيره ومنها أن معيشته تفسد"(٦٦).

المادة السابعة والعشرون:

يجب على الطبيب احترام صنعته وذلك باحترامه لنفسه وفرض هذا الاحترام على الغير.

تحدثنا فيما سبق بما يكفي عن نظرتهم الراقية العالية لمهنة الطب وشرفها ووجوب تشريف ممتهنيها. ولن نضيف مزيداً إلا قول أبي العلاء صاعد بن الحسن: "ولا يبلغ به الانبساط والبشاشة إلى أن يدق الأبواب ويتطفل على

المرضى فيتهاون به وتسقط هيبته ولا يطاع أمره.....ولا يمضي إلى المرضى حتى يستدعى فإنه أجل له وأرفع لمنزلته فإن ظهر له من المريض أو من أهله زهد فيه فلا يعاود إليهم"(٦٧).

المادة الثامنة والعشرون:

يجب على الطبيب أن يسعى ما أمكنه إلى تنمية علومه ومعارفه الطبية.

تحدثنا عن هذه النقطة عندما تحدثنا عن التعليم الطبي المستمر وأيضا عندما كتبنا عن واجبات الطبيب العامة. ولكن أجدادنا لم يكتفوا بذلك فقط، بل جعلوا استمرارية الطبيب في طلب العلم وتنمية معارفه ومعلوماته أحد واجباته نحو نفسه أيضا. يقول الرهاوي:

"وكذلك يجب على الطبيب أن تكون همته ليله ونهاره للدرس والاهتمام بعلم صناعته، ليوجد عنده ما يفزع إليه فيه"(٦٨).

obeikandl.com

هوامش الفصل السادس من الباب الثاني

١- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ١٤٨/٢-١٤٩، وأيضاً ماهر عبد القادر: دراسات وشخصيات ص ١١٤-١١٦.

٢- أبو العلاء صاعد: التشويق الطبي ص ٦٥.

٣- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مرجع سابق، ٧٣/٣.

٤- راجع الهامش ٢٧ من الفصل الثاني من الباب الثاني.

٥- عكاوي: الموجز في تاريخ الطب ص ١٩٩.

٦- ابن سينا: القانون في الطب ٢٤٩/١.

٧- الرهاوي: أدب الطبيب ص ٢٨٣.

٨- أبو العلاء صاعد: التشويق الطبي، مرجع سابق، ص ٨٦-٨٧.

٩- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مرجع سابق، ٤٣/٢.

١٠- القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ٩٩/١١.

١١- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مرجع سابق،٣٤٢/٣.

١٢- أبو العلاء صاعد: التشويق الطبي، مرجع سابق، ص ٨١.

١٣- المصدر السابق نفسه ص ٨٥.

١٤- المصدر السابق نفسه ص ٨٧.

١٥- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مرجع سابق، ١٧٠/٣.

١٦- أبو العلاء صاعد: التشويق الطبي، مرجع سابق، ص ٨٧.

١٧- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مرجع سابق، ١٧٠/٣.

١٨- المصدر السابق المكان نفسه.

١٩- المصدر السابق نفسه ١٧٠/٣.

٢٠- المصدر السابق المكان نفسه.

٢١- أبو العلاء صاعد: التشويق الطبي، مرجع سابق، ص ٨٤.

٢٢- القلقشندي: صبح الأعشى، مرجع سابق، ٩٨/١١-٩٩ و٣٧٧-٣٧٨.

obeikandl.com

٢٣- أبو العلاء صاعد: التشويق الطبي، مرجع سابق، ص ١١٤.

٢٤- القلقشندي، مرجع سابق: انظر الهامش ٢٢.

٢٥- ابن سينا: القانون في الطب، مرجع سابق، ٢٥٤/١.

٢٦- القلقشندي: صبح الأعشى، مرجع سابق، ٩٨/١١-٩٩.

٢٧- المصدر السابق المكان نفسه ٩٨/١١-٩٩.

٢٨- نقلا عن حنيفة الخطيب: الطب عند العرب ص ٥٠.

٢٩- القلقشندي: صبح الأعشى، مرجع سابق،٩٨/١١-٩٩.

٣٠- الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص ٨٩.

٣١- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مرجع سابق،٤١٢/٣.

٣٢- الاستسقاء الزقي: أن ينتفخ البطن وتنتؤ السرة وتسمع خضخضته إذا حركته، (الخوارزمي: مفاتيح العلوم ص ١٥٠).

٣٣- ارجع إلى الهامش ١٢٣ من الفصل الثاني من الباب الأول.

٣٤- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مرجع سابق،٢٩٤/٣.

٣٥- أبو العلاء صاعد: التشويق الطبي، مرجع سابق، ص٨٦.

٣٦- ابن قيم الجوزية: الطب النبوي ص ١٢٦.

٣٧- القلقشندي: صبح الأعشى، مرجع سابق، ٩٨/١١-٩٩.

٣٨- ابن سينا: القانون في الطب ٢٥٣/١.

٣٩- أبو العلاء صاعد: التشويق الطبي، مرجع سابق، ص ٨٣.

٤٠- الرهاوي: أدب الطبيب، مرجع سابق، ص ١٦٠.

٤١- المصدر السابق نفسه ص ١٧٠.

٤٢- رواه البخاري.

٤٣- محمد علي البار: المسؤولية الطبية وأخلاقيات الطبيب ص ٧٣-٧٦.

٤٤- ابن قيم الجوزية: الطب النبوي، مرجع سابق، ص ١٢٤.

٤٥- ابن قدامة في المعنى والشرح الكبير ٣٤٩/١٠-٣٥٠ نقلاً عن محمد علي البار: المسؤولية الطبية ص ١٥١.

٤٦- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مرجع سابق، ٤٣/١.

٤٧- أبو العلاء صاعد: التشويق الطبي، مرجع سابق، ص ٨٧-٨٨.

٤٨- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مرجع سابق، ١٧٠/٣.

٤٩- الرازي أخلاق الطبيب ص ٢٧، نقلاً عن أبي العلاء صاعد: التشويق الطبي، تحقيق مريزن سعيد مريزن ص ٨٨ هامش ١.

٥٠- الرهاوي: أدب الطبيب، مرجع سابق، ص ٢٨٧..

٥١- القلقشندي: صبح الأعشى، مرجع سابق، ٩٨/١١-٩٩.

٥٢- الرهاوي: أدب الطبيب، مرجع سابق، ١٦٤.

٥٣- المصدر السابق نفسه ص ١٦٤.

٥٤- أخرجه أبو داود.

٥٥- ابن قيم الجوزية: الطب النبوي، مرجع سابق، ص ١٢٢.

٥٦- المصدر السابق نفسه ص ١٢٣.

٥٧- المصدر السابق نفسه ص ١٢٢.

٥٨- المصدر السابق نفسه ص ١٢٤.

٥٩- المصدر السابق نفسه ص ١٢٣.

٦٠- المصدر السابق نفسه ص ١٢٣-١٢٤.

٦١- أبو العلاء صاعد: التشويق الطبي، مرجع سابق، ص ١١٤.

٦٢- المصدر السابق نفسه ص ٥٧.

٦٣- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مرجع سابق، ١٦٥/٣.

٦٤- الرهاوي: أدب الطبيب، مرجع سابق، ص ٢٨٣-٢٨٤.

٦٥- المصدر السابق نفسه ص ٢٨٧.

٦٦- أبو العلاء صاعد: التشويق الطبي، مرجع سابق، ص ٨٢.

٦٧- المصدر السابق نفسه ص ٨٢.

٦٨- الرهاوي: أدب الطبيب السابق ص ٢١٨.

obeikandi.com

obeikandl.com

الفصل السابع

تنظيم صنعة الصيدلة

العرب مؤسسو مهنة الصيدلة:

تقول الكاتبة الألمانية زيجريد هونكة: "العرب هم المؤسسون الحقيقيون لمهنة الصيدلة التي ارتفع أصحابها بمعلوماتهم الوفيرة وبشعورهم بالمسؤولية عن مستوى تجار العقاقير في العصور القديمة أو في عصور القدامى" وتضيف: "لقد فصل العرب حقل محضّر الدواء عن حقل واضعه، وأوجدوا مهنة الصيدلاني الذي ارتفع إلى مركز عال بفضل علومه ومسؤولياته الخاصة"[1].

كانت قواعد الطب عند العرب تقوم إلى جانب حفظ الصحة والحمية عن المؤذي على علاج المريض، فإلى جانب حفظ الصحة كان علاج المريض هو الهدف الذي قام عليه الطب (ولا يزال) عند جميع الأمم منذ ظهور الإنسان على الأرض. والعلاج يقوم على التعرف على المرض وكيفية القضاء عليه، وقد يستدعي العلاج التدخل الجراحي من بط وقطع وبتر أو جبر أو كي أو حجامة أو فصد، وقد يُكتفى بالعلاج المحافظ القائم على العلاج بالعقاقير.

وكان على الطبيب الحاذق أن يكون قادرا على التعرف على المرض، ضليعا بالعقاقير التي تعالج كل مرض وطرق الحصول عليها وتركيبها، فلم يوجد في ذلك الوقت أي واسطة بين المريض والطبيب في الحصول على الدواء، حيث كان

الطبيب يقوم بعد الكشف على المريض باختيار العقار المناسب، وإن لزم تحضيره؛ قام بتحضيره بنفسه يساعده بعض المعاونين، كتب "ابن جلجل" عن الطبيب "أحمد بن يونس الحراني": "ورأيت له اثني عشر صبياً صقالبة طباخين للأشربة، صناعين للمعجونات بين يديه"[٢]، ثم يقوم بإعطائه للمريض، وهكذا كان للطبيب مهنتين مما يمكننا أن نطلق عليه لقب "الطبيب الصيدلي" أو "الصيدلي الطبيب" وكانت تزيد قيمة الطبيب ومهارته كلما زادت معرفته بالأدوية وطرق الحصول عليها وتحضيرها.

وبهذه المنهجية صنف أطباء الإغريق العظام مؤلفاتهم التي احتوت دائما على أبواب عن الأدوية وطرق تحضيرها، هكذا كتب أبقراط وإسقلبياذس وسورانوس وجالينوس. أما أعظم من كتب من الأغريق عن الأدوية كان "ديسقوريدس" أو "دياسقوريدس العين زربي" كما سماه العرب. يقول ابن أبي أصيبعة عنه " وهو رأس كل دواء مفرد، وعنه أخذ جميع من جاء بعده، ومنه ثقفوا على سائر ما يحتاجون إليه من الأدوية المفردة..."[٣].

عوامل ساعدت في تطور الصيدلة على يدي العرب:

ثم ذهبت هذه الكتب في ظلمات مستودعات التاريخ وأقبية الأديرة إلى أن ظهر الإسلام وانتشر نوره في أرجاء المعمورة وبدأت حركة التاريخ مع الحضارة العربية الإسلامية. وقد أثرت ثلاث عوامل رئيسة في تطور الصيدلة عند العرب:

أولاً: كما ذكرنا سابقاً أنه في الطور الثاني من تطور الطب خلال الحضارة العربية الإسلامية والذي أطلقنا عليه: "ضحى الطب العربي" تم ترجمة عدد كبير من الكتب الإغريقية التي تناولت الطب والدواء، وبذلك توفرت كتب أبقراط وجالينوس وغيرهم لدارسي الطب وللأطباء، وخاصة ما كتبه ديسقوريدس في مقالاته الخمس عن الأدوية المفردة وكانت مواضيعها الرئيسة على النحو التالي:

المقالة الأولى: تشتمل على ذكر أدوية عطرة الرائحة وأفاوية وأدهان وصموغ وأشجار كبار.

المقالة الثانية: تشتمل على ذكر الحيوانات ورطوبات الحيوانات والحبوب والقطاني والبقول المأكولة والبقول الحريفة وأدوية حريفة.

المقالة الثالثة: تشتمل على ذكر أصول النبات وعلى نبات شوكي وعلى بذور وصموغ وعلى حشائش زهرية.

المقالة الرابعة: تشتمل على ذكر أدوية أكثرها حشائش باردة، وعلى حشائش حارة مسهلة ومقيئة، وعلى حشائش نافعة من السموم.

المقالة الخامسة: تشتمل على ذكر الكرم وعلى أنواع الأشربة وعلى الأدوية المعدنية.

هذا ما ذكره حنين بن إسحاق عندما ترجم عن ديسقوريدس.

ثانياً: ظهر الإسلام في الجزيرة العربية وانتشر بسرعة في أرجاء الأرض ودخل الناس في الإسلام أفواجا، وما هي إلا برهة في زمن التاريخ حتى أصبحت الدولة الإسلامية تمتد من حدود الصين إلى جبال البرانس على الحدود الغالية وكان قدرها أن تحمل مشعل الحضارة وتكون المركز الثقافي والعلمي للعالم، كما أن موقعها الجغرافي جعلها المركز الجغرافي للعالم القديم، فكانت ملتقى جميع الطرق التجارية مع الشرق والغرب والشمال والجنوب، وأتت القوافل محملة بالخيرات والبضائع التي كانت تشتمل أيضاً على كثير من المواد من أصل نباتي أو حيواني أو معدني يمكن استعمالها كأدوية وعقاقير، بالإضافة إلى هذا الكم من البشر والشعوب المتنوع ثقافيا وحضاريا الذين سكنوا هذه الدولة المترامية الأطراف بما لهم من تراث وخبرات في الأدوية واستعمالاتها، وأيضا سهلت حرية الحركة والتنقل في هذه الدولة الحديثة، تبادل المعلومات والخبرات.

وفجأة وجد طبيب هذه الدولة نفسه أمام كم هائل من الأدوية والمواد الخام وخبرات الشعوب لم تتوفر لأحد قط من الأقدمين.

ثالثاً: منذ القدم، منذ عصر قدماء المصريين مرورا بالهند وفارس والإغريق حاول بعض الأفراد الوصول إلى حلمين وأثبتت الأيام أنهما حديث خرافة، وهما:

١- الوصول إلى حجر الفلاسفة الذي يحول المعادن الرخيصة إلى معدن الذهب النفيس.

٢- الحصول على إكسير الحياة تلك المادة التي تجلب الخلود أو على الأقل تطيل العمر وتعيد الشباب.

وقد ارتبط هذان الهدفان بكثير من الخزعبلات والشعوذات والتأملات الفلسفية، وعندما وصلا إلى الإغريق وكعادتهم ومنهجهم الفلسفي وضعوا الأسس والقواعد النظرية لهذه الغاية، وظهرت القواعد الأولية النظرية لعلم السيمياء أوالخيمياء أو الكيمياء، ثم جاء العرب وتبنوا هذا العلم الوليد وحولوه بمنهجهم العلمي التجريبي إلى علم قائم بذاته له أصوله النظرية وقسمه العملي التجريبي التطبيقي، فهم أول من أوجد طرق المراقبة المنظمة في ضوء الشروط التي كان بإمكانهم في كل حين أن يعيدوها وينوعوها ويراقبوها، فخلقوا بذلك علم الكيمياء التجريبي في مفهومه العلمي، وأوصلوه إلى قمة رفيعة أصبحت بموجبها اكتشافات علم الكيمياء العضوية والكيمياء غير العضوية الحديثتين من الضروريات الماسة لإرجاع الكيمياء التجريبية إلى المستوى الذي أوصلها إليه العرب، كما قال المؤرخ الإنجليزي كاستم[٥].

كان الرائد في ذلك العربي المسلم جابر بن حيان الذي استطاع مع غيره من علماء الحضارة العربية الإسلامية إرساء أسس هذا العلم، وتوصلوا إلى استحضار عدد كبير من المركبات الكيميائية كماء الذهب والماء الملكي وكربونات الصوديوم وكربونات البوتاسيوم والزرنيخ والنشادر والقلويات ونترات الفضة.

وفرقوا بين الحامض والقلوي، وطرق الكشف الكيميائي، وأثبتوا أن التأكسد يزيد وزن المعدن وإن لم يعرفوا كيف يتم ذلك، وأن النار تنطفئ بدون هواء.

استنبطوا طرقا كيميائية كثيرة مثل التقطير والتكليس والتذويب والتبلور والتسامي. وصنعوا كثيرا من الأدوات والأجهزة الكيميائية المصنوعة من الزجاج فظهرت البواتق والأنابيق والحوامل وغيرها.

ومن هذه العمليات التي كانوا يجرونها والمواد التي كانوا يحضرونها؛ توصلوا إلى مواد لها صفات علاجية للأمراض، فتوصلوا إلى مواد تعالج أو تهدئ من أعراض التهاب المرارة، والغثيان، وآلام الطمث، والنزف وعلاج القولنج (التهاب الأمعاء الغليظة) والإسهال والديدان، وقروح المعدة والمريء، والخفقان وهبوط القلب، وعلاج السعال المزمن والسعال الديكي وآلام الأسنان، وعلاج النقرس وآلام المفاصل وعرق النسا، ومواد استعملت كموانع للحمل وأدوية موجبة للحبل. وغيرها عشرات من الأدوية والعقاقير. ومن علم الكيمياء هذا انبثق علم الصيدلة الحديث وصناعة الدواء.

أدت هذه المصادر الثلاث للمعرفة الصيدلانية أي:

١- الكتب الطبية المترجمة خاصة الإغريقية منها.

٢- ما توفر من مواد أولية وعقاقير وخبرة منتقلة بعد أن أصبحت الدولة الإسلامية المركز الحضاري والتجاري الأول في العالم في ذلك الوقت.

٣- بزوغ علم الكيمياء كمصدر لمركبات كيميائية يمكن استخدامها في العلاج.

كل هذا أدى إلى توفر كم هائل من الأدوية المفردة والمركبة من أصل نباتي أو حيواني أو معدني أو كيميائي كما ذكرنا سابقا، فكان على أطباء الحضارة

العربية الإسلامية أن يتعاملوا مع كل هذا الكم بالتنظيم المحكم. ولنرَ سوياً ماذا عملوا؟ وكيف نظموا؟ وكيف استفادوا؟ فأفادوا:

المنهج والتنظيم

أولاً: حسب منهجهم التجريبي أخضعوا جميع ما وصل إليهم للتجربة، قال جابر بن حيان: "المعرفة الصحيحة لا تأتي إلا بالتجربة"[٦] فما وجدوه صالحاً أخذوه وما وجدوه طالحاً تركوه، وما وجدوه قابلاً للتعديل عدلوه. ونذكّر هنا بما قاله الطبيب والشاعر الأندلسي ابن الخطيب: "مبدئياً يجب أن يكون كل برهان متوارثاً، قابلاً للتعديل، إذا ما اتضح لحواسنا عكسه"[٧] وقد سبق أن ذكرنا كيف كان تحول العرب عن العلاج بطريقة أساتذتهم اليونانيين التي تعتمد على استعمال الأدوية الحارة القوية في علاج الإسهال والقيء والفالج وغيره والتي كانت في كثير من الأحيان تضر أكثر من أن تنفع، إلى الطريقة التي ابتدعوها في استعمال الأدوية الخفيفة الباردة والتي أدت إلى نتائج باهرة وتحول مبتدعها إلى أن يصبح رئيسا للأطباء وطبيبا للملوك وكان هذا التحول انقلابا في طرق العلاج في تاريخ الطب[٨]. مما دعا ابن بطلان لكتابة مقالته المشهورة التي عنونها بالتالي: "علة نقل الأطباء المهرة أكثر الأمراض التي كانت تعالج قديما بالأدوية الحارة إلى التدبير المبرد ومخالفتهم في ذلك لطرق القدماء في الكنانيش والاقراباذينات، وتدرجهم في ذلك بالعراق وما أولاها"[٩] وعلى هذا الدرب سار "ابن ماسويه" والرازي. كما خففوا من وطأة بعض الأدوية التي وضعها الإغريق بمزجها بعصير الليمون والبرتقال وبإضافة بعض المواد المحببة

إلى النفس مثل القرنفل وهكذا قدم ابن سينا أدوية جالينوس في إطار سهل غير مضر.

ثانيا: استفاد العرب من علم الكيمياء فسخروه في خدمة الطب وكان الرائد في ذلك إلى جانب أبي الكيمياء جابر بن حيان، طبيبنا الكبير الرازي الذي ألف اثني عشر كتاباً في الكيمياء. وهو أول من استخرج الكحول واستعمله كمعقم في العمليات الجراحية. واستحضر كثيراً من المركبات الكيميائية التي استعملها في العلاج ولكن قبل استعمالها كان يجربها على القردة، وقد مر معنا كيف جرب تأثير الزئبق ومركباته على القرد، وهو الذي غلف بعض الحبوب شديدة المرارة بأغلفة مجمدة، مكونة من مزيج عصير البرتقال والسكر أو العسل. والعظيم الآخر ابن سينا هو الذي غلف الحبوب بطبقة من ذهب أو الفضة لما لها من تأثير قوي على القلب. واستطاع هؤلاء الأطباء والمكتشفون العظام تركيب كثير من الأدوية والضمادات والمراهم واللزوق والمساحيق والشراب الحلو (السيروب) والجلاب ومراهم دبقة تجف مع الوقت فتكون عازلاً على الجروح[١٠].

ثالثاً: وضعوا القواعد والنظم في وصف الأدوية للمرضى وتناولها.

قواعد وصف العقاقير وتناولها

القاعدة الأولى:

لا دواء بدون تشخيص أي التشخيص أولاً ثم إعطاء العلاج المناسب.

قال علي بن رضوان: "إذا دعيت لمريض فأعطه ما لا يضره إلى أن تعرف علته فتعالجها عند ذلك"(١١).

وقال عنصر المعالي قابوس بن إسكندر في كتابه " قاموس نامة": " ويجب على المعالج ألا يبدأ بأية معالجة ما لم يعرف أولاً قوة المرض ونوع العلة وسببها"(١٢).

وقال أبو العلاء صاعد بن الحسن:" ولا يصف للمريض شيئاً حتى يجيد البحث والسؤال والاستقصاء ويستدل بالعلامات والدلائل على المرض ويفهم السبب فحينئذ يصف بنصح واجتهاد ما يعلم أنه في الغاية من المداواة "(١٣).

القاعدة الثانية:

إذا كان في مقدور المريض أن يقاوم المرض بدون أدوية (المناعة الطبيعية) يكون أفضل. أي أنه على الطبيب أن يراعي "قوة المريض، وهل هي مقاومة للمرض أو أضعف؟ فإذا كانت مقاومة للمرض مستظهرة عليه تركها والمرض لم يحرك بالدواء ساكناً"(١٤).

القاعدة الثالثة:

"أن يعالج بالأسهل فالأسهل، فلا ينتقل من العلاج بالغذاء إلى الدواء إلا عند تعذره، ولا ينتقل إلى الدواء المركب إلا عند تعذر الدواء البسيط، فمن حذق الطبيب علاجه بالأغذية بدل الأدوية، وبالأدوية البسيطة بدل المركبة"(١٥).

قال الرازي:" إن استطاع الحكيم أن يعالج بالأغذية دون الأدوية فقد وافق السعادة"(١٦).

وقال قابوس بن إسكندر: "وإذا عرفت الجنس فلا تمعن في الدواء والضماد ما دام يكتفي بالغذاء، وما دام يكتفي بالسفوف والطلي فلا تمعن في الحب والمطبوخ، وإياك أن تجترئ على المداواة، فما دام الأمر يتم بالتسكين واللطف فلا تسرف في الاستفراغ"(١٧).

وقال صاحب التشويق الطبي: "إذا أمكنه أن يعالج بالغذاء فلا يقرب الدواء، أو يعالج بالدواء فلا يقرب الحديد إلا فيما لا بد منه"(١٨).

القاعدة الرابعة:

عند وصف الدواء يجب أن يكون ذلك على ثلاثة قوانين:

القانون الأول: اختيار كيفيته أي اختياره حاراً أو بارداً أو رطباً أو يابساً.

القانون الثاني: اختيار كميته وهذا ينقسم إلى:

- قانون تقدير وزنه.

- قانون تقدير كيفيته.

القانون الثالث: قانون ترتيب وقته.

هذا ما قاله ابن سينا في قانونه ثم يواصل فيقول:"أما قانون اختيار كيفية الدواء على الإطلاق فإنما يهتدي إليه بالوقوف على نوع المرض، فإنه إذا عرف كيفية المرض، وجب أن يختار من الدواء ما يضاده في كيفيته، فإن المرض يعالج بالضدِّ والصحة تُحفظ بِالمُشَاكِل"(١٩).

وعن نفس القوانين التي تنظم اختيار الدواء كتب أبو العلاء صاعد بن الحسن: "والواجب على الطبيب أن يحسن تقدير الأدوية في الكمية والكيفية والوقت وجهة الاستعمال واختيار المواد"(٢٠).

القاعدة الخامسة:

عند وصف الدواء يجب ملاحظة الآثار الجانبية للدواء ومضارها على الجسم وهل يمكن أن يتحملها المريض؛ أي عمل موازنة بين قوة المريض وقوة الدواء.

يقول ابن قيم الجوزية: "النظر في قوة الدواء ودرجته، والموازنة بينهما وبين قوة المريض" ويقول أيضاً: "ألا يكون كل قصده إزالة العلة فقط، بل إزالتها على وجه يأمن معه حدوث أصعب منها"(٢١).

القاعدة السادسة:

يجب على الطبيب عند وصف الدواء ملاحظة أن الأدوية يختلف تأثيرها باختلاف البيئة واختلاف البشر.

يقول طبيبنا أبو بكر الرازي: "باختلاف عروش البلدان تختلف المزاجات والأخلاق والعادات وطباع الأدوية والأغذية، حتى يكون ما في الدرجة الثانية من الأدوية في الرابعة وما في الرابعة في الثانية"(٢٢).

القاعدة السابعة:

التدوين: يجب على الطبيب أن يدون كل ما يصفه للمريض من أدوية في سجل المريض(٢٣).

القاعدة الثامنة:

مراعاة الدقة التامة في نسب الدواء والمواد المركب منها، ولهذا الغرض طوروا الموازين الحساسة، وابتدعوا الأوزان الصغيرة من المثقال والدرهم والدانق والقيراط(٢٤).

القاعدة التاسعة:

يجب ملاحظة زمن جمع المواد الأولية وطرق تخزينها وتخزين الدواء وزمن انتهاء صلاحية الدواء.

يقول الرهاوي: "والأدوية المفردة على كثرة أصنافها يدخل عليها الفساد من وجهين: أحدهما فيما يخص جواهرها، والآخر فيما يخص أعراقها" ثم يتحدث

عن زمن جميع الأدوية المفردة ووجوب خزنها بطريقة صحيحة مع مراقبة خزانها وفي النهاية يكتب عن وجوب ملاحظة مدة الصلاحية للدواء قائلا: " ويجب أيضا على الطبيب أن يحذر من الأدوية ما عتق وطال مكثه لأن قوى هذه تضعف، وأفعالها تنقص، وكثير منها يفسد"[٢٥].

ويفرد العطار الهاروني (أبو المنى داود بن أبي النصر) في كتابه "منهاج الدكان ودستور الأعيان في أعمال وتراكيب الأدوية النافعة للأبدان " فصلا للحديث عن حفظ الأدوية المفردة يتناول فيه كيفية اتخاذ الأدوية المفردة، وفي أي زمان، وفي أي مكان، وفي أي الأشياء تخزن، وما يفسدها فيتوقى، وما يصلحها فيعتمد عليه، وما يعمل مع بعض الأدوية المفردة مما يمنع فسادها ويحفظ قوتها[٢٦].

وأفرد فصلا آخر في أعمار الأدوية المركبة منها والمفردة[٢٧].

القاعدة العاشرة:

على الطبيب أن يتأكد من أن الدواء المصروف للمريض من الصيدلي هو الدواء الموصوف.

يقول الرهاوي:" يجب على الطبيب أن يتيقظ لذلك، ولا يُعوّل إذا وصف دواء على أن يأخذه من الصيدلاني من اتفق ممن يخدم المريض، بل يجب على الطبيب أن ينظر إليه قبل استعماله"[٢٨].

ويقول أبو العلاء صاعد بن الحسن: "وإذا وصف الطبيب دواء غريبا فيجب أن يأمر مشتريه أن يعرضه عليه ليسلم من حلول الخطأ بالمريض"[٢٩].

القاعدة الحادية عشرة:

لا تستعمل المواد الأولية كأدوية مفردة أو أن تدخل في تركيب الأدوية المركبة إلا بعد امتحان جودتها.

لقد أولى الأطباء والصيادلة العرب هذا الاختبار اهتمامهم، وهو غير تجريب الدواء الجديد قبل استعماله فهذا تحدثنا عنه سابقاً؛ بل المقصود هنا امتحان المواد الأولية من جهة جودتها النوعية ومطابقتها للأوصاف والمعايير الصحيحة.

وقد أفرد العطار الهاروني فصلاً في كتابه السالف الذكر عن امتحان الأدوية المفردة والمركبة وذكر ما يستعمل منها وما لا يستعمل.

فمثلا عن امتحان "دهن البلسان" كتب: "تأخذ منه شيئاً يسيراً وتقطره على الماء فإن انفرش كسائر الأدهان كان مغشوشاً، وإن بقي ثابتاً مكانه كان خالصاً، ويعمل منه على الثوب، فإن بقي ثابتا مكانه كما وضع فهو خالص، وإن انفرش فهو مغشوش، وإن بللت منه مسلة وشعلتها في النار وظهرت منه رائحة طيبة، فهو طيب"(٣٠).

وعن امتحان الزئبق كتب: "الخالص منه الأبيض الدائم الحركة إذا غمز بالإصبع لا يتفرق، وإذا وضعته في الكف لا يؤثر فيه، عديم الرائحة، والرجيع ضد ذلك وهو أثقل من جميع المعادن وجميع المعادن تعوم فوقه إلا الذهب، فإنه يغرق فيه"(٣١).

رابعاً: المؤلفات الصيدلانية:

كما ذكرنا سابقا في هذا الكتاب حرص العرب منذ الطور الثاني في تطور الطب لديهم (ضحى الطب العربي) أي خلال طور الترجمة على تأليف الكتب الطبية الخاصة بهم. هذا ما فعله حنين بن إسحاق وتلاميذه، وآل ماسويه، وآل الطيفوري وغيرهم من أطباء تلك المرحلة.

ظهور المؤلفات الإبداعية الصيدلانية في طور النضج (شمس الطب العربي):

١- كفصول في الموسوعات الطبية الشاملة:

بدأت تظهر المؤلفات الطبية المبتكرة بل نستطيع أن نطلق عليها الموسوعات الطبية بلغة عصرنا مثل كتاب المنصوري وكتاب الحاوي للرازي والقانون في الطب لابن سينا وفردوس الحكمة لعلي بن ربن الطبري والكتاب الملكي لعلي بن عباس المجوسي وغيرها من الكتب الموسوعية. وكان غرضهم من كتابة هذه الموسوعات هو وضع كتاب شامل يجمع كامل الطب في كتاب واحد من أصول الكليات إلى طرق تشخيص واستدلال إلى طرق علاج سواء كان تدخل يدوي جراحي أو محافظ دوائي، وهكذا احتوت هذه المؤلفات على أجزاء كثيرة تناولت الأدوية من حيث صفاتها وأنواعها وطرق تحضيرها واستعمالاتها، فكتاب مثل القانون في الطب احتوى وصفا لسبعمئة وستين دواء. وكتاب المنصوري للرازي تناولت المقالة الثالثة منه قوى الأغذية والأدوية، والمقالة الثامنة كانت عن السموم والهوام[٣٢]. وأما في كتابه الجامع المسمى "حاضر صناعة الطب"[٣٣] تطرق الرازي في القسم الثاني: إلى قوى الأغذية والأدوية وما يحتاج إليها من التدبير في الطب.

القسم الثالث: في الأدوية المركبة.

القسم الرابع: فيما يحتاج إليه من الطب في سحق الأدوية وإحراقها وتصعيداتها وغسلها واستخراج قواها وحفظها ومقدار بقاء كل دواء منها وما أشبه ذلك.

القسم الخامس: في صيدلية الطب، فيه صفة الأدوية وألوانها وطعومها وروائحها ومعادنها وجيدها ورديئها، ونحو ذلك من علل الصيدلة.

القسم السادس: في الإبدال يذكر فيه ما ينوب عن كل دواء أو غذاء إذا لم يوجد.

القسم السابع: في تفسير الأسماء والأوزان والمكاييل التي للعقاقير.

عزيزي القارئ هل تعتقد أنك تقرأ فهرست كتاب حديث في الصيدلة؟ فاعلم إذاً أن هذا كتب قبل ما يزيد على ألف عام .

٢- كمؤلفات قائمة بذاتها متخصصة في الصيدلة:

ظهور الكثير من المؤلفات المتخصصة والمنفردة القائمة بذاتها عن الأدوية المفردة والمركبة وأنواع الشراب والمراهم والمساحيق واللزوق. وظهرت الاقرابادينات (كتب تركيب الأدوية وقوانينها، أو علم طبائع الأدوية وخصائصها)[٣٤]. ألفها كبار علماء الطب، وهي من الكثرة بحيث يصعب حصرها في هذا الكتاب، لذا سنورد بعض الأمثلة:

مؤلفات الرازي في الصيدلة:

كتاب في هيئة المفاصل اقراباذين. كتاب في كيفية الاغتذاء وهو جوامع ذكر الأدوية المعدنية. كتاب الاقراباذين المختصر. كتاب في أثقال الأدوية المركبة، كتاب في أدوية العين، وعلاجها ومداواتها وتركيب الأدوية لما يحتاج إليه من ذلك. كتاب صيدلية الطب[٣٥].

مؤلفات أبي ريحان البيروني:

كتاب الصيدلة في الطب؛ استقصى فيه معرفة ماهيّات الأدوية ومعرفة أسمائها واختلاف آراء المتقدمين وما تكلم كل واحد من الأطباء وغيرهم فيه، وقد رتبه على حروف المعجم[٣٦].

مؤلفات أحمد بن الأشعث في الصيدلة:

كتاب تركيب الأدوية. كتاب الأدوية المفردة (ثلاث مقالات)[٣٧].

مؤلفات ابن التلميذ في الصيدلة:

اقراباذين العشرين بابا، اقراباذين الموجز البيمارستاني وهو في ثلاثة عشر بابا. المقالة الأمينية في الأدوية البيمارستانية[٣٨].

مؤلفات رشيد الدين بن الصوري في الصيدلة:

سنتوقف عند هذا الطبيب قليلاً، فإن ما فعله يجعل أي طبيب في عصرنا ينحني له احتراماً خاصة عندما نعلم أنه عاش قبل ثمانمئة وخمسين عاماً. فقد

قام بتأليف كتاب عن الأدوية المفردة استقصى فيه ذكر الأدوية المفردة، وذكر أدوية اطلع على معرفتها ومنافعها لم يذكرها المتقدمون، ستقول أيها القارئ العزيز: وما العجيب في هذا؟ فقد تعودناه من الأجداد، والجواب سيكون في بقية الرواية حيث أن هذا الكتاب كان يحتوي صورا ملونة لكل نبتة فيه، بل لكل نبتة ثلاث صور: الأولى لشكل النبتة عند أول نموها الثانية عند اكتمال نموها والثالثة عند ذبول النبتة وجفافها.

ولكي نعرف كيف تم له ذلك، لنقرأ سويا ما كتبه ابن أبي أصيبعة ليزداد يقينك على صدق الرواية: "ولرشيد الدين الصوري من الكتب: كتاب الأدوية المفردة، وهذا الكتاب بدأ بعمله في أيام الملك المعظم، وجعله باسمه استقصى فيه ذكر الأدوية المفردة، وذكر أيضاً أدوية اطلع على معرفتها ومنافعها لم يذكرها المتقدمون، وكان يستصحب مصورا، ومعه الأصباغ والليق على اختلافها وتنوعها فكان يتوجه رشيد الدين بن الصوري إلى المواضع التي بها النبات، مثل جبل لبنان وغيره من المواضع التي قد اختصّ كل منها بشيء من النبات فيشاهد النبات ويحققه، ويريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأعضائه وأصوله، ويصور بحسبها ويجتهد في محاكاتها، ثم إنّه سلك أيضاً في تصوير النبات مسلكاً مفيداً، وذلك أنه كان يُري النبات للمصور في إبّان نباته وطراوته فيصوره، ثم يريه إياه أيضاً وقت كماله وظهور بذره فيصوره تلو ذلك، ثم يريه إياه أيضاً في وقت ذواه ويبسه فيصوره فيكون الدواء الواحد يشاهده الناظر إليه في الكتاب، وهو على أنحاء ما يمكن أن يراه في الأرض فيكون تحقيقه له أتم، ومعرفته له أبين"[٣٩].

٣- كمؤلفات لمتخصصين صيدلانيين لم يمارسوا سوى الصيدلة:

ظهور كتب موسوعية عن الأدوية كتبت من قبل أشخاص لم يمارسوا الطب كثيرا كأطباء؛ بل تفرغوا وأفنوا عمرهم يبحثون في الدواء واستعمالاته. وقد كان أشهرهم وأعظمهم مكانة عميدهم ضياء الدين بن البيطار (أبو محمد عبدالله المالقي النباتي) أعظم عبقرية صيدلانية ظهرت في تاريخ العرب: ولد في الأندلس وشغف بالأعشاب والنباتات منذ صغره، فدرس علومها أولا على أيدي علماء الصنعة في الأندلس ثم انتقل إلى المغرب حيث واصل دراسته هناك على أيدي علماء المغرب أمثال الكتامي، صيدلاني بلاط الموحدين بفاس، وفي نفس الوقت درس كتب الإغريق خاصة جالينوس وديسقوريدس.

يقول ابن أبي أصيبعة عنه حيث إنه درس عليه ولازمه عندما أتى دمشق:

"وأعجب من ذلك أيضاً أنه كان ما يذكر دواء إلا ويعين في أي مقالة هو من كتاب ديسقوريدس وجالينوس وفي أي عدد هو من جملة الأدوية المذكورة في تلك المقالة"(٤٠).

ودرس كتب ابن زهر وابن سينا والرازي وحنين بن إسحاق وابن ماسويه وغيرهم وتنقل في البلدان فإلى جانب الأندلس والمغرب زار مصر والشام وواصل إلى بلاد الإغريق،ووصل إلى أقصى بلاد الروم بحثا عن النباتات ودراستها في مواقعها. يقول تلميذه ابن أبي أصيبعة:

"لقد شاهدت معه في ظاهر دمشق كثيرا من النبات في مواضعه"(٤١).

مؤلفات ابن البيطار[٤٢]:

- كتاب الإبانه والأوهام، بما في المنهج من الخلل والأوهام.

- شرح أدوية كتاب ديسقوريدس.

- كتاب المغنى في الأدوية المفردة، وهو مرتب بحسب مداواة الأعضاء الآلمة.

- كتاب الأفعال الغريبة والخواص العجيبة.

- كتاب ميزان الطبيب.

-كتاب الدرة البهية في منافع الأبدان الإنسانية.

ثم وضع كل علمه وخبرته وعبقريته في كتابه الخالد.

- "الجامع لمفردات الأدوية والأغذية" يقول ابن أبي أصيبعة عنه:

"وقد استقصى فيه ذكر الأدوية المفردة وأسماءها وتحريرها وقواها ومنافعها، وبين الصحيح منها وما وقع الاشتباه فيه، ولم يوجد في الأدوية المفردة أجل ولا أجود منه"[٤٣].

وقد وصف ابن البيطار أكثر من ألف وسبعمئة دواء مفرد من أصل نباتي، ومئة وستة وثلاثين دواء مفرداً من أصل حيواني، ومئة وتسع وأربعين دواء مفرداً من أصل معدني. وقد اعتمد ابن البيطار على مصادر كثيرة في كتابه هذا بالإضافة إلى ما توصل إليه بالمعاينة والخبرة. وقد قام بترتيب هذه المفردات

obeikandl.com

على طريقة المعجم، وذكر لكل دواء اسمه وصفته وقوته ومنفعته الدوائية والبديل له. وقد أصبح هذا الكتاب مرجعا لجميع الصيادلة بعده سواء في المشرق الإسلامي أو في الغرب بعد ترجمته إلى اللغات الأوروبية.

وبالإضافة إلى كتب ابن البيطار ظهر كثيرٌ من المصنفات الصيدلانية المتخصصة سواء قبله أو بعده مثل:

"الجامع لأشتات النبات " للشريف الإدريسي، و"الأدوية المفردة " للغافقي " ما لا يسع الطبيب جهله" لإسماعيل البغدادي، و "منهاج الدكان ودستور الأعيان في أعمال وتراكيب الأدوية النافعة للأبدان" لأبي منى داود المعروف بالعطار الهاروني" ، و"حديقة الأزهار في شرح فنية العشب والعقار" للقاسم بن محمد الغساني وكتاب " تذكرة أولى الألباب والجامع العجاب" لداود الأنطاكي وهو الكتاب الذي عرف باسم " تذكرة داود الأنطاكي"، يعتبر أحد أكثر الكتب شهرة وشعبية في هذا المجال ولا يزال معروفا إلى وقتنا الحالي، وتناول فيه المؤلف وصف ما يزيد على ثلاثة آلاف عقار من أصل نباتي وحيواني ومعدني واستعمالاتها في شتى الأمراض.

فصل حقل محضّر الدواء (الصيدلي)

عن حقل واصف الدواء (الطبيب)

من كل ما تقدم في هذا الفصل يظهر لنا أن هذا الكم الهائل من المعلومات عن الأدوية سواء كانت من أصل نباتي أو معدني أو حيواني وصفاتها واستعمالاتها وبدائلها والمعلومات الاقراباذينية عنها وطرق صناعتها وتحضيرها كانت أكبر من مقدرة شخص واحد يمتهن صنعتين أي الطب والصيدلة، يقول الرازي: "العمر يقصر عن الوقوف على فعل كل نبات في الأرض..."(٤٤).

فكان لا بد من التخصص وفصل المهنتين بعضهما عن بعض إداريا وفنيا، فظهر المعالج الذي يمتهن صنعة الطب ويصف العلاج وله مجاله العلمي والمهني، كما له قواعده التنظيمية من وجود مشرفين كمحتسب ورئيس للأطباء واختبارات متخصصة لا بد من اجتيازها، وتراخيص عمل يجب الحصول عليها وقسم يقسم وقواعد تراعى. وظهر أيضا خبير الدواء الذي يمتهن صنعة الصيدلة، ويحضر الدواء الموصوف من الطبيب، وأصبح له مجاله العلمي والمهني، وقواعده التنظيمية الخاصة بمهنته.

القواعد الأساسية الإدارية والفنية المنظمة لصنعة الصيدلة

المحتسب:

إلى جانب ما تقدم ذكره في هذا الكتاب عن واجبات المحتسب العامة، وإشرافه الرقابي الإداري على مهنة الطب؛ كان له أيضا الإشراف الرقابي الإداري على مهنة الصيدلة؛ حيث كان يقوم بجولات تفتيشية على حوانيت بيع الأدوية أو الخان الطبي (الصيدليات الخاصة). وعلى الشراب خانة (صيدليات المستشفيات) وبصحبته متخصصون يراقبون الصيدلي في عمليات تحضير وتركيب وتجهيز الدواء، ويتأكد من عدم بيع الأدوية إلا بموجب وصفات طبية لمرض معين بدواء مجرب مأمون محضر بطريقة صحيحة ويتأكد من أن الخان يحتوي على جميع الأجهزة اللازمة للصنعة ويراجع كشوفات تحضير الأدوية ويتأكد من نسب المواد.

أيضا المحتسب هو الذي يمنح تصاريح العمل للصيادلة بعد اجتيازهم اختبار الصيدلة أمام رئيس الصيادلة.

وهو الذي يوقفهم عن العمل إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

يقول الشيزري في كتابه "نهاية الرتبة في طلب الحسبة" في الحسبة على الصيادلة:

"تدليس هذا الباب كثير لا يمكن حصر معرفته على التمام، فرحم الله من نظر فيه وعرف استخراج غشوشه، فكتبها على حواشيه تقربا إلى الله تعالى، فهي أضر على الخلق من غيرها؛ لأن العقاقير والأشربة مختلفة الطبائع والأمزجة، والتداوي على قدر أمزجتها، فمنها ما يصلح لمرض ومزاج فإذا أضيف إليها غيرها أحرفها عن مزاجها، فأضرت بالمريض لا محالة، فالواجب على الصيادلة أن يراقبوا الله عز وجل في ذلك".

ويواصل الشيزري فيقول:" وينبغي للمحتسب أن يخوفهم ويعظهم وينذرهم العقوبة والتعزير، ويعتبر عليهم عقاقيرهم في كل أسبوع"(٤٥).

ويحذر الشيزري الصيادلة من غش الأدوية بمزجها مع مواد أخرى لما في ذلك من ضرر، ويعطى أمثلة على أنواع من المزج ولا يكثر منها حتى لا يتعلم من لا دين له أسرارها فيدلس بذلك على الناس يقول: "وقد أعرضت عن أشياء كثيرة في هذا الباب، لم أذكرها لخفي غشها ولامتزاجها بالعقاقير، مخافة أن يتعلمها من لا دين له ن فيدلس بها على المسلمين"(٤٦).

وعن الحسبة على الشرابيين (من يركب الأشربة الدوائية من الصيادلة): "لا يعقد الأشربة ويركب الجوارشنات، إلا من اشتهرت معرفته، وظهرت خبرته وكثرت تجربته، وشاهد تجريب العقاقير ومقاديرها من أربابها وأهل الخبرة لها، ولا يركبها الشرابي إلا من الكناشات المشهورة، والاقراباذينات المعروفة... وعلى أن يتقي الله عز وجل، ويخشى اليوم الآخر من التهاون بها، والتفريط بأوزانها، وأن يدخل عليها ما ينافيها ويسلبها خاصيتها"(٤٧).

رئيس الصيادلة (عميد الصيادلة):

- له الإشراف الفني على جميع الصيادلة في منطقته.

- يقوم بامتحان الصيادلة ويمنحهم شهادتها ويرشحهم للحصول على تصريح العمل من قبل المحتسب.

- يقيد الصيادلة الناجحين في الجدول الخاص بهم [٤٨].

- يعتبر المرجع الأعلى في الأمور الصيدلانية ويرجع إليه عند أي استشكال صيدلاني.

الصيدلي (محضر الدواء):

- عليه اجتياز امتحان الصيدلة والحصول على تصريح عمل لكي يزاول مهنته كصيدلي.

- يقوم بتحضير وتركيب وتجهيز الدواء على الطرق الصحيحة وحسب وصفة الطبيب.

- لا يصرف دواء بدون وصفة.

- تسجيل ما صرف من دواء وطريقة تركيبه في سجلات خاصة بذلك.

- الصيادلة العاملون في البيمارستانات كانوا إلى جانب عملهم كصيادلة ومحضري دواء يعملون أيضا كفنيي مختبرات لقدراتهم الكيميائية ومهاراتهم في استعمال الأجهزة.

obeikandi.com

- مراقبة الأفران وباعة الحليب والمواد الغذائية ومحلات الجزارة والتأكد من الموازين[٤٩].

امتحان الصيدلة:

أول امتحان للصيادلة كان في عصر المأمون في رواية رواها ابن أبي أصيبعة مختصرها:

إن المأمون انتقد علم الكيمياء أمام يوسف بن لقوة الكيميائي، فأفاده يوسف بأن العلة ليس في الكيمياء بل في الصيادلة، حيث إن بعض الصيادلة: "لا يطلب منه إنسان شيئاً من الأشياء كان عنده أو لم يكن إلا أخبره بأنه عنده، ودفع إليه شيئاً من الأشياء التي عنده". فأراد المأمون امتحان هؤلاء فاخترع اسماً وهمياً: "سقطيثا" وهو اسم ضيعه قرب مدينة السلام. وأرسل بعض أخصائه لابتياع هذا الشيء من الصيادلة، فعادوا جميعا وبحوزتهم أشياء مختلفة، وأفادوا بأنهم لم يذهبوا إلى أي صيدلي وطلبوا منه سقطيثا إلا قال: عندي وباعهم شيئاً ما بثمن معلوم[٥٠].

وثاني اختبار للصيادلة حدث أيام المعتصم بأمر أحد قادته العسكريين ويدعى "الأفشين" وقام به الطبيب زكريا بن الطيفوري، وسمح لمن اجتاز الاختبار من الصيادلة التعامل مع الجيش وطرد من لم يجتزه[٥١]. ومنذ ذلك الزمن أصبح امتحانُ الصيدلة ضرورياً للحصول على تصريح العمل بممارسة صنعة الصيدلة.

ولكي يجتاز الاختبار لا بد أن يكون الطالب دارساً على أيدي عالم مشهود له بالأستاذية والعلم، ضليعاً بكتب الاقراباذين لكبار أهل الصنعة مثل ابن

البيطار، وسابور بن سهل، وأبو الحسن هبة الله بن سعيد وغيرهم، ماهرا في استخدام الأجهزة الكيميائية، قادرا على تركيب وتجهيز الأدوية حسب تعليمات كتب الاقراباذين متبعا بدقة وصفات الأطباء.

الصيدلية:

المكان الذي تمارس فيه صنعة الصيدلة. ولقد أرادها العرب أن تسمو عن حوانيت البقالين والعشابين والعطارين [٥٢]. وتأسست أول صيدلية في الدولة العربية الإسلامية في بغداد على زمن أبي جعفر المنصور في العام الثمانين من القرن الثامن الميلادي [٥٣]. وتطورت منذ ذلك الوقت إلى أن وصلت إلى درجة قريبة من الصيدلية الحديثة. وكانت على عدة أشكال:

حوانيت الصيادلة[٥٤]:

الصيدلية الخاصة وتقع غالبا بالقرب من حوانيت الأطباء (العيادات).

الشراب خانة (خزانة الشراب)[٥٥]:

الصيدلية الملحقة بالقصور السلطانية والبيمارستانات وكانت بمثابة مختبر أيضاً.

الصيدلية العسكرية[٥٦]:

وهي الصيدلية الملحقة بالبيمارستانات العسكرية المتنقلة والتي كانت تتبع الجيوش في تنقلاتها.

محتويات الصيدلية:

وكان على كل صيدلية أن تحتوي على جميع الأجهزة والمواد والأدوات اللازمة للصناعة مثل:

- كتب الاقراباذين.
- العقاقير المفردة والمركبة.
- المواد الأولية من أصل نباتي أو حيواني أو معدني والمواد الكيميائية.
- الأجهزة اللازمة للعمليات الكيميائية من أجهزة تقطير وتكثيف وبواتق وأنابيب وغيرها.
- الموازين الحساسة والمرود والهاون وأوعية مختلفة الأحجام والمقاسات ووحدات الوزن المختلفة.
- القوالب التي توضع فيها المساحيق لعمل أقراص الدواء[٥٧].
- دفاتر يدون فيها جميع عمليات التركيب والتحضير للدواء.
- الوصفات الطبية المصروفة من الأطباء.

وتكون جميع هذه الصيدليات تحت الإشراف الحكومي المباشر عن طريق المحتسب.

obeikandl.com

هوامش الفصل السابع من الباب الثاني

١- زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص ٣٢٩.
٢- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ٦٨/٣.
٣- المصدر السابق نفسه ٥٧/١.
٤- المصدر السابق نفسه ٥٨/١.
٥- زيجريد هونكه: شمس العرب، مرجع سابق، ص ٣٢٥.
٦- حسن عبد السلام: بين الصيدلي والعطار ص ١٧.
٧- زيجريد هونكه: شمس العرب، مرجع سابق، ص ٣٣٤.
٨- ارجع إلى ما ذكرناه في الباب الأول الفصل الرابع.
٩- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مرجع سابق، ٢٤٢/٢.
١٠- زيجريد هونكه: شمس العرب، مرجع سابق، ص ٣٢٨.
١١- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مرجع سابق، ١٧١/٣.
١٢- محمد دمج: مرايا الأمراء ص ٣٦٧.
١٣- أبو العلاء صاعد: التشويق الطبي ص ٨٤.
١٤- ابن قيم الجوزية: الطب النبوي ص ١٢٥.
١٥- المصدر السابق نفسه ١٢٦.
١٦- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مرجع سابق،٣٥١/٢.
١٧- محمد دمج: مرايا الأمراء، مرجع سابق، ص ٣٧٠.
١٨- أبو العلاء صاعد: التشويق الطبي، مرجع سابق، ص ٨٦.
١٩- ابن سينا: القانون في الطب ٢٥٤/١.
٢٠- أبو العلاء صاعد: التشويق الطبي، مرجع سابق، ص ١١٤.
٢١- ابن قيم الجوزية: الطب النبوي، مرجع سابق، ص ١٢٥.
٢٢- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مرجع سابق، ٣٥١/٢.
٢٣- الرهاوي: أدب الطبيب ٢٦٥، وأيضاً ابن الأخوة القرشي: معالم القربة في أحكام الحسبة ص ١٢٧.

obeikandl.com

٢٤- انظر المؤلفات الطبية الشاملة (مثل ابن سينا: القانون في الطب) والتي تناولت أيضاً تحضير الدواء، وكذلك المؤلفات المتخصصة (مثل العطار الهاروني: منهاج الدكان ودستور الأعيان)، أيضاً انظر حسن عبد السلام: بين الصيدلي والعطار ص ١٧.

٢٥- الرهاوي: أدب الطبيب، مرجع سابق، ص ١٧٥.

٢٦- العطار الهاروني: منهاج الدكان ودستور الأعيان، مرجع سابق، ص ٢٧٣-٢٧٩.

٢٧- المصدر السابق نفسه ص ٢٩٩-٣٠٣.

٢٨- الرهاوي: أدب الطبيب، مرجع سابق، ص ١٧٦.

٢٩- أبو العلاء صاعد: التشويق الطبي، مرجع سابق، ص ٧٩.

٣٠- العطار الهاروني: منهاج الدكان ودستور الأعيان، مرجع سابق، ص ٢٨٤.

٣١- المصدر السابق نفسه ص ٢٨٦-٢٨٧.

٣٢- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مرجع سابق، ٣٥٥/٢.

٣٣- انظر ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مرجع سابق،٢٥٥/٢-٢٥٦، ويقول ابن أبي أصيبعة عن هذا الكتاب: "أقول هذا التقسيم المذكور هاهنا ليس هو لكتابه المعروف بالحاوي ولا هو تقسيم مرضي، ويمكن أن هذه كانت مسودات كتب وجدت للرازي بعد موته."

٣٤- العطار الهاروني: منهاج الدكان ودستور الأعيان، مرجع سابق، ص ٥ الهامش

٣٥- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مرجع سابق،٣٥٤/٢-٣٥٩.

٣٦- المصدر السابق نفسه ٣٠/٣.

٣٧- المصدر السابق نفسه ٢٤٨/٢.

٣٨- المصدر السابق نفسه ٢٩٣/٢.

٣٩- المصدر السابق نفسه ٣٥٩/٣-٣٦٠.

٤٠- المصدر السابق نفسه ٢٢١/٣.

٤١- المصدر السابق نفسه ٢٢١/٣.

٤٢- انظر ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مرجع سابق، ٢٢٢/٣، وعكاوي: الموجز في تاريخ الطب ص ٢٧٩، وأيضاً زيجريد هونكه: شمس العرب ص ٣٢٢، وحسن عبد السلام: بين الصيدلي والعطار ص ١٧ وابن البيطار: تنقيح الجامع لمفردات الأدوية والأغذية (المقدمة).

٤٣- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مرجع سابق، ٢٢٢/٣.

٤٤- المصدر السابق نفسه ٣٥٠/٢.

٤٥- الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، مرجع سابق، ص ٤٢.

٤٦- المصدر السابق نفسه ص ٤٧.

٤٧- المصدر السابق نفسه ص ٥٦.

٤٨- زيجريد هونكه: شمس العرب، مرجع سابق، ص ٣٣٠.

٤٩- المصر السابق المكان نفسه.

٥٠- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مرجع سابق، ٩٢/٢.

٥١- المصدر السابق نفسه ٩٢/٢-٩٣.

٥٢- حسن عبد السلام: مرجع سابق ص ١٦.

٥٣- زيجريد هونكه: شمس العرب، مرجع سابق، ص ٣٢٩.

٥٤- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، مرجع سابق، ٩٣/٢، ١٩٧/٣.

٥٥- انظر القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا ٥٤٦/٣ و٥٦٩ و٢٢٢/٧ هامش ١.

٥٦- زيجريد هونكه: شمس العرب، مرجع سابق، ص ٣٢٩.

٥٧- حسن عبد السلام: بين الصيدلي والعطار، مرجع سابق، ص ١٦-١٧.

obeikandl.com